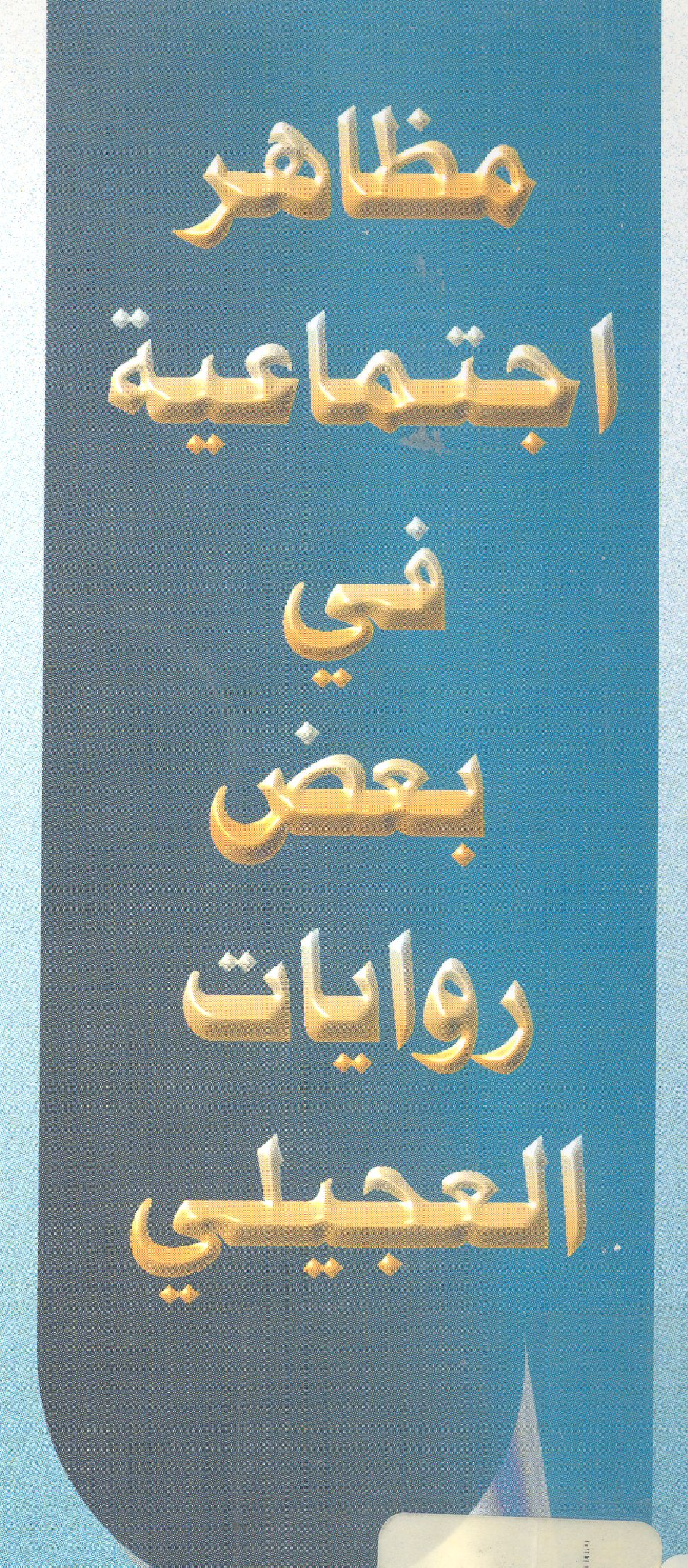
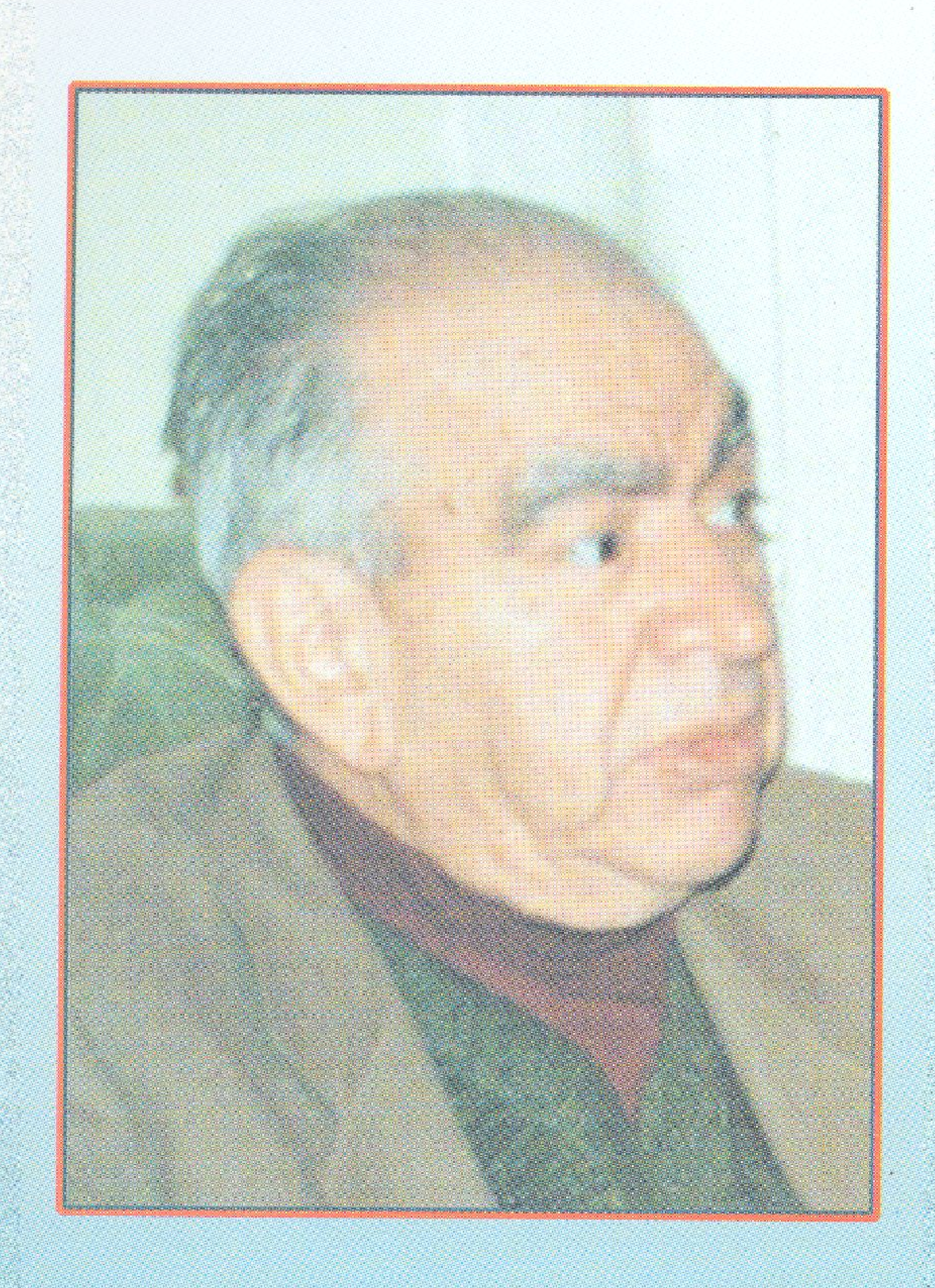




مظاهر اجتماعية في بعض روايات العجيلي



شاهر امرير

مظاهر اجتماعية

في بعض روايات عبد السلام العجيلي

* الكتاب: مظاهر اجتماعية

في بعض روايات عبد السلام العجيلي

* المؤلف: شاهر أمرير

* إخراج: آمل عصفور

* تصميم الغلاف: جمال سعيد

الطبعة الأولى - دمشق - ٢٠٠٠م

الناشر

الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية

دمشق - ص.ب ٣٣٩٧ (أو) ١٠١٨١ - هاتف ٢٢٤٨٢٥٥

مظاهر اجتماعية

في بعض روايات عبد السلام العجيلي

إعداد: شاهر امرير

الإهداء

إلى

الفرات...

شعباً وحضارةً

إلى

زوجتي..

أم أسعد

إلى

أولادي..

مي - أسعد - رؤى
عامر - يزن - رغد

مقدمة

عبر فترة زمنية ليست طويلة استطاعت الرواية من أن تخلق لنفسها مكانة خاصة مكّنتها من مساوقة أهم الأجناس الأدبية على مر التاريخ (الشعر والمسرح)، لم يقف الأمر عند ذلك، بل تابعت مسيرتها لتكون شاغلاً رئيسياً للمثقفين والأدباء، وغدت جنساً أدبياً قادراً على الانفتاح والتطور والتعدّد، وما كان هذا ليتاح لولا خصوصية هذا الجنس الأدبي الذي أفاد من فنون وأجناس وعلوم عديدة مسخراً إياها لخدمة معطياته وما يصبو إليه..

ومع أن مؤرخي الأدب ومنظّريه قد سعوا (لقَوْننة) هذا الفن إلا أنه بقي قادراً على التجاوز والتمرد لأنه لا يريد نهاية قريبة لنفسه، وهذا جعل الجميع يسعون لتصنيف أنماطه وأشكاله، مرة وفق التقنيات وأخرى عبر المضامين وثالثة من خلال المناهج النقدية السائدة.. وهكذا رحنا نسمع عن رواية تاريخية وواقعية

وخيالية وفانتازّية، وواقعية سحرية، ورواية تستفيد من الحوار وأخرى تركز على السرد ..، رواية طويلة وقصيرة، رواية شخصية ورواية أحداث، ورواية حالة.. بل رواية تجريبية وأخرى تقليدية، رواية مغرقة في المحلية وأخرى مغرقة في الإنسانية.

وهكذا إلى ما لا نهاية من التسميات التي تفتحها آفاق هذا الفن.

ومرّ عبر تاريخ هذا الفن مئات الروائيين منهم من عُرِفَ وشهر عالمياً، ومنهم من لم يسمع به أحد.. وارتبطت أسماء عديدة بهذا الفن وحصلوا على الجوائز المحلية والعربية والعالمية.. وفي نهاية الأمر سلَّم الجميع بخصوصية فن الرواية وجمالياته وخصوصياته وقدرته على التطور الدائم..

وقد خلقت الرواية العربية فضاءاتها الخاصة بها عبر التلاقح طوراً والخصوصية تارة والحرص على التعبير عن واقع المجتمع الذي يضجُّ بالأحداث والأوجاع غير المحدودة...

لو حاول المرء تعداد أسماء أهم الأدباء العرب لاستطاع أن يشير إلى عشرات الروائيين الذين كتبوا روايات كثيرة فيها الكثير من التميّز.. من هؤلاء د. عبد السلام العجيلي الأديب المتنوع الاهتمامات والكتابات الذي خلق لنفسه براعة وخصوصية في مختلف الأنماط التي ندب نفسه للتعبير من خلالها، فلا ينسى متابع مجموعته القصصية الأولى (بنت الساحرة) التي أشار إليها

عديدون على أنها المجموعة القصصية الفنية الأولى في تاريخ القصة السورية.

ولا تقل رواياته أهمية عن قصصه وإن كان قد عرف قاصاً أكثر من كونه روائياً، لكن هذا لا يعني أنه اقتصر على هذين الجنسين لأنه كتب المقالة والشعر والمسرح وسوى ذلك، وتمكن عبر ما يزيد على ستين عاماً من ترك بصمة لا تُكَرَّر بسهولة.

لقد كان الواقع المنبع الرئيس لروايات عبد السلام العجيلي، لكن أدبه لم يكن توثيقياً، إنما تحليلياً لهذا الواقع الذي رصد تجلياته المختلفة: أحزابه وأحواله ومآسيه وأفراحه، ولم يتناوله تناولاً سطحياً ولا عبثياً، انطلاقاً من إيمانه بدور الأدب ومكانته في صياغة رؤية دقيقة لما يجري..

صحيح أن عديدين يرون أن العجيلي أميل لكتابة الرواية التقليدية؛ لكن من قال: إن كل ما هو تقليدي غير نافع؟!

إننا نحتاج للتقليدي الأصيل حاجتنا للجديد المنبثق من حاجاتنا وواقعنا، مثلما لا نحتاج للميت من التقليدي، ولا للتجريب الذي لا يمت لأحوالنا بصلة..

لقد أُلِّفت كتب وأعدت أطروحات حول أدب العجيلي ونشرت مئات المقالات، إلا أن الميدان لا يزال مفتوحاً للحديث عن تجربته.. ليس الموضع موضع إشارة إلى خصوصيات أدب العجيلي، ولا إلى

عوامل تميزه إلا أن الحقيقة تتطلب منا الإقرار بأنه طود شامخ أسهم مساهمة فعالة في التجليات المختلفة للثقافة العربية في القرن العشرين.

بناء على ما سبق فإن تناول الجانب الاجتماعي في الصفحات القادمة له مكانة خاصة، لأن علاقة العجيلي بالمجتمع علاقة غير عادية، ليس لاعتزازه العشائري فقط، بل لأنه كائن ذو علاقات اجتماعية واسعة، يحاور الصغار والكبار، ويغوص في أعماق مجتمعه ولديه مقدرة في التحاور مع مستويات فكرية متباينة، إضافة إلى دراية وخبرة وذكاء في تحليل معطيات الحالة الاجتماعية، لذا فإن العلاقة بين الفرد ومجتمعه وما آلت إليه المجتمعات، وتعدد الشرائح الاجتماعية، وأثر المجتمع في التربية قضايا ذات حضور في روايات العجيلي التي سنتناولها في الدراسة..

قد يبدو للقارئ أن الدراسة كانت يمكن أن تكون أوسع وأشمل وأعمق لكن إشعال شمعة خير من انتظار زوال (الغَبَش).

ومع أن الذائقة تبدو ذات حضور ملفت إلا أن هذه الذائقة اتكأت على قراءات عديدة متخذة من التحليل طريقاً رئيسياً، وقد تمّ التركيز على أحداث الرواية ومدى تواشجها مع ما يدور في المجتمع ضمن ثنائية الواقعي والمتخيل، بخاصة أن العجيلي لا يترك فرصة

تفوته إلا ويحاول إقناع قارئه بواقعية أحداثه لعلّ الأثر يكون أكبر وأوسع..

لا شك أن تجربة العجيلي اغتنت واتسعت وتنوّعت؛ لأنه بقي مخلصاً لحقل الكتابة بل يعد اليوم من أكبر الأدباء في سورية سناً، وأغناهم تجربة وأكثرهم مثابرة على الكتابة، لا يمنعه عمره من المشاركة في ندوة أو محاضرة أو سوى ذلك في أي مكان كان..

إن هذه الصفحات المكتوبة حول رواياته الأربع هي تجربة في القراءة أكثر من كونها تجربة في الكتابة، وحسب المرء أن يكون قارئاً ساعياً لكشف أبعاد النصوص وما تحتويه من مكنونات يحاول كل قارئ أن يكشف بعضها، مع معرفتنا أنّ المقدرة على الكشف تخضع لعوامل عديدة لسنا في صدد الوقوف عندها الآن..

إن الحرص على إصدار هذه الأوراق في كتاب هو حرص على الانتقال من ثقافة المشافهة إلى ثقافة الكتابة، ولعلنا نستطيع الإشارة إلى عدد من الأسئلة التي يمكن أن تظهر في نفس القارئ مما يدفعه للحوار، وربما تسهم في دعوته لقراءة أدب عبد السلام العجيلي بل قد تنبه إلى بعض أوجاع المجتمع والواقع.. وفي أسوأ الحالات هي تجربة قراءة أراد كاتبها أن ينقلها للقارئ بصفتها تجربة شخصية تعتمد على ذائقة مؤلفها الذي يسعى لإيصال أفكاره للآخر لعل الحوار يعمّ ويزداد..

في كل الحالات قد تكون هذه الأفكار مدخلاً لأفكار أخرى، وربما تكون محطة قراءة في أدب كاتب معروف مهما حاول القارئ وضع الضوابط، لرؤى المؤلف وأفكاره فإن الأديب يبقى محاولاً الابتعاد عنها والتجديد، وهذا قدرُ الأدب والفن الذي يحرص على التنويع والتجديد والتجاوز كي تستمر الحياة وتتطور..

أخيراً إن هذه الصفحات لا أهمية لها دون حواركم معها ومع مؤلفها عبر الورق أو المشافهة..

المؤلف

رواية المغمورون(*)

تتصـرف روايـة المغمـورون إلـى المرحلـة التاليـة لبنـاء سـد الفرات، حيث بدأت تتشكل بحيرة خلف السـد،غمـرت قـرى كثيرة، فسميت المنطقة منطقة الغمر ، وسكانها بالمغمورين.

ولهـذه المشكلة أصل في الواقـع الحيـاتي ، بمعنـى أن الدكتـور العجيلـي، اسـتند في بنـاء روايتـه علـى حـدث تم حصولـه فعـلا في الواقـع الحيـاتي، أي نقـل سـكان منطقـة الغمـر إلـى منطقـة الحـزام الأخضـر ، بعدمـا كـانوا موعوديـن بالانتقـال إلـى القـرى النموذجيـة الحديثـة التـي بنيـت علـى ضفـاف البحـيرة غـير بعيـد عـن أمـاكن سكناهم الأصليـة، وليـس غريبـا علـى عـالم الروايـة الاسـتناد إلـى حـدث خـارجي حقيقـي، ولكـن مهمـا تكـن وشـائج الصلـة بـالحدث فـالرواية قبل أي شئ آخر، عمل فنـي والمجتمـع فيهـا مجتمـع روائـي

(*) رواية "المغمورون"، عبد السلام العجيلي – دار الشرق – بيروت – ١٩٧٩.

متخيل، والمهم فيها طريقة الروائي في التعبير، والرؤية الفنية التي يطرحها من خلاله[1].

للرواية مرتكزان رئيسيان:

الأول- مشكلة القرى الواقعة في فراش النهر، خلف السد، حيث بدأت البحيرة يالتشكل فغمرت مياهها هذه القرى.

الثاني- عملية التحول الاجتماعي إذ يتضح من سياق الرواية إيلاء الدكتور العجيلي المرتكز الثاني أهمية أكبر، حيث بدأت عملية تحول اجتماعية، نتيجة وضع اقتصادي استجد، من خلال بناء السد.

المرتكز الأول جاء لخدمة المرتكز الثاني، ولتغذية الحدث الدرامي وإغنائه، وبعد استيفاء الحديث عن اللقاء بين طبقة البرجوازية ممثلة ندى، وطبقة الكادحين ممثلة بعثمان، جاء الحسم متكئا على المرتكز الأول لصياغة نهاية لهذا اللقاء الذي حصل في مجتمع الرواية المتخيل، لكنه يفتقر إلى مقومات الاستمرار.

عرفت ندى منذ طفولتها بالعناد الذي تحول بعد ذلك إلى تجاوز غير مقبول في التفكير والسلوك، وخروج على المألوف، فقد تجاوزت رغبة أهلها في متابعة تعليمها العالي في جامعة دمشق لتتخرج مدرسة أو طبيبة أو محامية وأصرت على دراسة السكرتارية وإدارة الأعمال في إحدى جامعات بيروت، بل إنها رفضت عروض عمل في بيروت، وفي العواصم الأوروبية التي كانت

لشـركاتها فـروع في العاصمـة اللبنانيـة، ولعل الدكتـور العجيلي مهّـد بذلك لقبول عملها في منطقة سـد الفـرات، فتجـاوزت المـألوف علـى عادتهـا حينمـا هرولـت لتعمـل في هـذا المشـروع الجبـار الـذي قـامت ورشـاته على جـانبي النهـر الكبير وفي بواديـه الغبـراء، هـذا التجـاوز الذي اعتبر برأي أهلها ومعارفها شـذوذا، فملكـة الأناقـة في الكلية، تهجر أناقتها وزينتها وترتدي ثيـاب رعـاة البقـر، لعـل نـدى قـد ملـت تقاليد طبقتها البرجوازية، وآثرت العمل في مشروع سد الفرات مع علمها أنه قاس، تلزمه خشونة وعزوف عن الملاهـي وأدوات الزينـة، فعبـرت عن الملل الطبقي حين أقامت في منطقـة السد وبرهنـت على صفة لازمتها وهـي التفرد في التفكير والسلوك، يعمـل لديها سـائق شـاب من أبناء المنطقـة، اسـمه عثمـان، فـلاح مـن منطقـة الغمـر، لـم يتعدَّ في تعلميه المرحلة الابتدائية، أمين لجمعية تعاونية مـن فلاحـي مزرعة تجريبية وهو على تواضع مستواه التعليمي واسع المعرفـة في كل الأمور التي تتعلق بالعمل، ودقائقه، شخصية مرموقة بين أقرانـه لما عرف عنه إيمانه بـالعمل، وهـذه الصفـات يسـرت لـه سـبل اللقـاء بذوي المراكز الكبيرة في المشروع، وقد كان صلة وصل بين الفلاحـين والسلطات العليا، فاعتمدوا عليه بإقناع الأهـالي لـترك بيوتهم الـتي ستغمرهـا الميـاه والإنتقـال إلـى القـرى النموذجيـة علـى كتـف النهـر، وإقناعهم مرة أخرى بالهجرة إلى المحافظة الشرقية.

ويوضع على أرضية سلوك ندى الصحبة الغربية التي ربطتها

بفلاح ابن فلاح، حيث تحولت رابطة العمل بين بنت العاصمة المثقفة، وابن القرية إلى حب تمهد له الفصول الأولى من الرواية، ثم اتفاق على الزواج، وهو ليس حبا عاديا، بل هو انعكاس للملل الطبقي ورغبتها في معرفة طبقة الكادحين، ويبدأ زملاء ندى في العمل يحدسون كنه العلاقة بينها وبين عثمان، ونظرا لمعرفتهم بتحرر ندى وسعة تفكيرها فلا يعجبون منها إذا تزوجت فلاحا، وهي التي أدارت ظهرها للحياة الباذخة والسيارة الفارهة لتقطع بسيارة اللاندروفر السهوب الجرداء، تحرقها حرارة الشمس وتلفها أعاصير الغبار، وقد كان عثمان يخشى أن يكون تعلقها به نزوة في صدر فتاة: أو أن يتغير شيء في نفس ندى وهو حريص على ألا يكون حينئذ أضحوكة الناس في المشروع الكبير، أو في قرية المركزية حيث تعمل ندى، أو في جناح العازبات حيث تسكن، وهي ترى فيه ضعيف الثقة بنفسه، فتأبى أن يظهر أمامها بمظهر الضعيف لذا أقول لك بأني امرأة .... وأحب أن يكون رجلي قويا(٢).

وعثمان يعتبرها حبيسة طبقتها وهي ترى فيه حبيس طبقته بل إنها تعتبر زواجها من عثمان تحديا قررت أن تفوز به، ويغذي هذا التفوق الطبقي، والتفكير البرجوازي الذي يعشعش في حنايا نفسها بضرورة الحصول على ما تريد، والوصول إلى ما ترغب.

وما يكاد اللقاء بين طبقتي ندى وعثمان يتم حتى تبدأ الرواية تشكك في إمكانية استمراره، هذا اللقاء الذي أبقته الرواية

سرا بين الحبيبين، وبررت لقاءاتهما المستمرة نتيجة طبيعة عملها فهي مشرفة على بناء القرى النموذجية، وهو السائق المكلف بتغطية جولاتها الميدانية إضافة إلى أنه هو القائم على إقناع الأهالي بضرورة التخلي عن قراهم التي ستغمرها مياه البحيرة والانتقال إلى القرى النموذجية المبنية على المرتفعات المشرفة على البحيرة.

ولعل في بقاء سرية اللقاء بين الطبقتين رمزا غير معلن للمحاولات الرامية إلى زحزحة أبناء الطبقتين عن مواقعهم القديمة بسبب التحولات الاقتصادية التي تمر بها البلاد ومجسدة في بناء سد الفرات[٣].

وعلى الرغم من استمرارية اللقاءات، وكسر الحواجز الرسمية بينهما، وتبادل العواطف، وإطفاء جمرتها على الطرقات الفرعية، وداخل سيارة اللاندروفر، إلا أن التذكير بالأصل الطبقي يرافقهما دوما، فعثمان على الرغم من اعتداده بنفسه، يرى أن فروقا كبيرة لا يمكن تجاهلها، تجعل من قرانهما أمرا معقدا 'صعوبة تحقيقه تفوق صعوبة تصديقه'[٤]، وأن ندى منتمية إلى عالم بعيد، وصديقات ندى يذكرنها أن عثمان فلاح وسائق سيارة، فترد على هذا التذكير بمزيد من الالتصاق السري بعثمان، ولعل قرية 'الهدلانية' هي التجسيد الحقيقي للقاء السري بين الطبقتين حيث اتفقا على السكن في هذه القرية النموذجية التي تشرف ندى على بنائها، وعلى إعلان خطوبتهما وزواجهما في اليوم الذي يتم

انتقال الناس إليها، فاختاروا بيتاً لهم، وبيتاً لأسرة عثمان (جابر المبروك وأمه هدلة)، وقرية الهدلانية تعبير عن التحول الاجتماعي الناتج عن بناء السد مع سواها من القرى النموذجية فيها سيقوم الفلاحون بنقلة اجتماعية إلى حياة جديدة، وهم يقاومون الحياة الجديدة، غير راغبين في مغادرة حياتهم السابقة، فيحاول عثمان وأمثاله نقلهم إلى الحياة في القرى النموذجية، حيث الماء النظيف، والكهرباء، ودار السينما، بمعنى آخر نقلهم من نمط الحياة العشائرية إلى نمط بسيط من حياة المدن.

تنتقل الرواية بعد ذلك إلى المرتكز الآخر، وهو مشكلة القرى الواقعة في منطقة الغمر وقد كانت المشكلة المحك الحقيقي للقاء السري بين الطبقتين، فبعد أن يفلح عثمان ورفاقه في إقناع سكان قرى الغمر للانتقال إلى القرى النموذجية تأتي الأوامر من السلطات العليا بضرورة إقناع الفلاحين بالانتقال إلى المحافظة الشرقية، بعيدا عن أراضيهم مئات الكيلومترات، وهم الذي كانوا يرفضونه إلى عدة أمتار.... فتبرز مشكلة أكبر، وعلى عثمان وأعضاء لجنة التوعية مهمة تذليلها... ومهمة عثمان أكبر لأنه من أبناء المنطقة.

فيرفض الفلاحون مغادرة أراضيهم، ويجابهون عثمان بقسوة وجلافة 'أذهب أنت وأبوك إلى تلك الأرض البعيدة، أما نحن فلن نترك أرضنا.. وطننا.. لن نصير مثلكم جالين'[*] يشيرون إلى أنه وأباه جالون، غرباء عن هذا الوادي، لا جذور لهم فيه، وليس بين عشائره

عشيرة ينتسبون إليها، وكذلك استهجنت ندى قرار التهجير وتساءلت إن من يخططون يعيشون في العاصمة أم في المريخ؟! واعتبر الفلاحون عملية التهجير ناراً تحرق القلب فيرد عليهم أعضاء اللجنة أن وراء عملية نقل سكان قرى الغمر إلى الحزام الغربي مصلحة عليا للوطن، إنهم يتشبثون ببيوتهم الطينية التي بنوها على سيباط أجدادهم، المبني من سوس وغرب'هل سمعت بشجرة تلم جذورها وتضعها على أكتافها وتمشي لكلمات تسمعها'[٦].

وتطرح مشكلة قرى الغمر أمام اللقاء السري فرصة السير إلى أمام أو النكوص إلى الوراء، فمستقبل العلاقة بين ندى وعثمان أمام مفترق الطرق.

ويبدو ترجّح عثمان واضحاً في موضوع قرى الغمر، بين قبول أوامر السلطة بتهجير الفلاحين ورفضه لها وترجحه واضح في عدم إعلانه رفض الأوامر، وفي عدم تحريضه الفلاحين على رفضها والمطالبة بالقرى النموذجية.. ومن شعوره الداخلي بأن هذه الأوامر غير صحيحة وغير منطقية ويجب العدول عنها.. وهو يحاول إقناع الأهالي بالهجرة إلى المحافظة الشرقية.. ويأمل أن تتخلى السلطات العليا عن قرارها ، فهو مطيع لأوامر لا يراها منطقية، إنها سلبية عثمان التي يعبر عنها ترجحه.

ولا يبدو تمسك عثمان بطبقته قوياً، ففي الوقت الذي يقنع

فيه عثمان أهالي منطقة الغمر، يفكر بالحل الفردي، وذلك باختيار بيت لأهله، وله ولندى في الهدلانية بعد هجرة السكان إلى منطقة الحزام الغربي 'صدرت تلك القرارات، وستطبق، ولا يفيد أن يعارض أحد، أو يعطي رأيه في تطبيقها، لا أنا وأمثالي، نحن فلاحون وعلينا تنفيذ ما يراه الكبار لنا'[٧].

وقد رافق ترجحه استسلام فكري 'الآن فتحت عيني، فرأيت الواقع ، نحن محكوم علينا أن نظلّ مظلومين، حين رأيت حال قومنا هناك، أدركت أن كل ما جرى، أنهم هربوا من ظلم إلى آخر، استجاروا بالدولة لتنصفهم من الطبيعة، والمجتمع، فرفعت عنهم لها، وأوقعتهم تحت ظلمها هي!!'[٨]

وفي الوقت نفسه يتطلع عثمان إلى الانعتاق من طبقته، بل ينحدر إلى الأسفل كثيرا حين يعلن عن تخليه عن طبقته للفوز بندى'... لماذا أنكد على أبوي ما تبقى لهما من أيام العمر، بأن أبعدهما عن الجو الذي ألفاه، ولماذا أعارض ندى فيما تحب وأزعجها حتى تجري دموعها على خديها، بينما لا يدري أحد بما أفعل، ولا يهم به؟'[٩] وتسرّ للنتيجة التي وصل إليها عثمان فتقول ندى 'المهم أنك عدت إلى التفكير السليم، وقررت البقاء هنا'[١٠].

غير أن تخلي عثمان عن التزامه بقومه لا يستمر طويلا، فسرعان ما يقوم الفلاحون بمظاهرة أمام إدارة المشروع، ولم تكن

على تلك الوجوه علائم ثورة أو عنف، بل كان الحزن والانكسار... فكل ما يريدونه من الدنيا وأهلها أن تتركهم الدنيا وأهلها بسلام... ويطلب مدير المشروع من عثمان الخروج لإقناع الفلاحين بأن الإدارة لا يد لها في هذا الأمر، غير أن الفلاحين يرفضون سماع كلامه لأنه لم يعد واحدا منهم، بل إنه ليس واحدا منهم، فهم قوم جالون ولا يهمهم أن يجلوا مرة أخرى، وهو بنظرهم قد خانهم حين قبل التهجير للناس ورفض تهجير أهله وقد كانت المظاهرة حاسمة لترجح عثمان، لأن المسوغات التي حاول إقناع نفسه بها، لم تقو على احتمال فكرة الانفصال والخيانة، لهذا ارتد بسرعة إلى التزامه السابق، فقرر الهجرة إلى المحافظة الشرقية، وحين تسأله عن سبب تمسكه بهذه الأفكار يجيبها 'بالعكس يا ندى، قيمة هذه الأفكار كبيرة الدليل؟ هو أن كل حبي لك لم يقدر أن يقتلها في نفسي'[11]، وليس في تراجعه تمسك طبقي، بقدر ما هو أسير للعادات الاجتماعية، وفكرة التخلي عن الجماعة، إنه يريد أن يبرهن للفلاحين أنه واحد منهم، وأنه معهم، ولا يلاحظ وراء عمله قناعة، أو حب جارف يسوق أمامه كل الحجج...

لقد نزل إليهم عثمان ليقنعهم فأقنعوه 'لم أخف منهم، أخجلوني، ربما، أو أني أردت الصحيح خجلت من نفسي، كيف يخطر ببالي أن أتميز عنهم؟ أن أدفعهم إلى الشرق وأظل أنا هنا في مكاني'[12]، وتذكّره ندى أنه بعد الذي قالوه بحقه صار من حقه

أن يتخلى عنهم ... لكنه يجيبها بلهجة قاطعة، إنه لن يسكن الهدلانية، وأنه سيرسل أمه وأباه، ثم يلحق بهم هو وندى، فتطلب منه أن يطرد هذه الأفكار التافهة... ويقابل ترجح عثمان حسّ ندى الطبقي الذي عبّر عن نفسه باستعادة ندى لحياتها البرجوازية حين أتتها طبقتها في صورة أنيس المتعهد وأخته حورية، وانصرافها عن عثمان في فترة وجود حورية في المشروع وفي سفرها إلى حلب مع أنيس وحورية، وسكوتها عن غزل أنيس... إن مشكلة القرى ومظاهرة الفلاحين لم تحسم ترجح عثمان وحسب، بل ترافقت مع ظهور الأصل البرجوازي على ساحة الرواية، مما جعل ندى أمام اختيارين، اختيار تنفيذ رغبتها بالانضواء تحت لواء طبقة عثمان، أو اختيار العودة إلى طبقتها بقبول الزواج من أنيس ولأن الدافع إلى الاختيار هو البعد الطبقي و المللَ فقد أسرعت ندى إلى قبول أنيس زوجا لها.

مشكلة قرى الغمر، وتهجير الفلاحين إلى المنطقة الشرقية:

ما يكاد عثمان يصل إلى ضوء أمل في إقناع أهالي قرى الغمر بالانتقال إلى القرى النموذجية القابعة على المرتفعات المطلة على البحيرة، حتى تأتي أوامر العاصمة بضرورة ترحيل هؤلاء الناس إلى المحافظة الشرقية، بعيدا عن أراضيهم مئات الكيلومترات، فهم لم يقتنعوا بضرورة مغادرتهم إلى هذه القرى النموذجية، فكيف يقبلون التهجير إلى أماكن بعيدة عنها؟

ويعد الفلاحون عثمان رأس الكاذبين، لأنه كان يعدهم بالقرى النموذجية القريبة... فإذا هو يتحلل من وعده، ليحاول إقناعهم من جديد بالهجرة إلى أماكن بعيدة... وبأن المصلحة العليا هي السبب في هذه الهجرة.

والرواية تدين على نحو أو آخر عملية التهجير، ولكنها لا تفعل ذلك لمجرد الإدانة، بل لتصوير صعوبة اقتلاع العادات والتقاليد المتعلقة بالأرض والحياة الجديدة... وينظر الدكتور العجيلي إلى عملية التهجير على أنها تعسفية وغير معقولة، واجهت عقبات كثيرة أهمها ارتباط الفلاحين بأرضهم نظرا لذكرياتهم، وجهدهم في العمل بها، وتاريخهم الطويل في الإقامة بها... ولم ينظر إليها على أنها توزيع للثروة البشرية في شمال سورية، ولم تلتفت الرواية إلى قضية الحزام الغربي ودورها في توطين العرب في عدد من مناطق الجزيرة السورية، ليكونوا عائقا وحاجزا أمام هجرة أقوام أخرى إلى هذه المنطقة.

ولقد عرضت الرواية القضية على أنها مجرد رأي، ارتأته السلطات العليا، وحاولت إقناع الفلاحين به عن طريق ممثليهم، ولعل غرض الرواية تصوير مدى تشبث الفلاحين بأرضهم أكثر من عنايتها بالدافع الحقيقي وراء عملية التهجير، فلقد تم عرض المشكلة من وجهة نظر واحدة.

الفلاحون:

تلمّح الرواية إلى تطور المجتمع في منطقة الغمر، من مرحلة البداوة ذات الاقتصاد الرعوي إلى مرحلة الاستقرار العشائري في وادي الفرات، وتشكل مجتمع القرية ذي الاقتصاد الزراعي وبناء أكواخ مسقوفة بأعواد الحطب.

وتظهر الرواية الفلاح محافظاً أليفاً لما تعوده، يخاف من كل ما لم يتعوده، لا يصدق أن الجديد المجهول يمكن أن يكون خيراً، لذا كان انتقال سكان قرى الوادي التي ستغمرها مياه السد إلى القرى النموذجية، ليس هيناً، لا من الناحية العملية، ولا من الناحية النفسية.. فكيف يتركون مساكن ولدوا فيها، وأرضاً فلحوها سنين طوالاً؟!

ظلم الطبيعة:

تصور الرواية ظلم الطبيعة للفلاح من خلال عربدة النهر السنوية، واجتياحه للمزارع والبيوت، ومعاداته عندما ينحسر النهر وعندما يفيض. فالفلاحون يركضون وراء النهر في زمن الثلج، ويركضون أمامه في زمن الفيضان، وتصفهم الرواية أنهم متعودون في كل الأزمنة والأمكنة على تحمل الظلم، استجاروا بالدولة لتنصفهم من الطبيعة والمجتمع فرفعت عنهم الظلم. وأوقعتهم تحت ظلمها، فكان النهر يطردهم عشرات الأمتار فأبعدتهم مؤسسات الدولة مئات الكيلو مترات حتى أصبحوا جالين، ويرى الدكتور

العجيلي أن الفلاحين هم هم في كل أرض لله 'يعودون في كل الأزمنة والأمكنة على تحمل الظلم'[١٣].

والحقيقة أن المؤلف قد غالى كثيراً حين تحدث عن نقل سكان الغمر إلى الحزام الغربي فقد نظر إلى الموضوع من زاوية واحدة، تكمن في صعوبة اقتلاع السكان من أرضهم، وزرعهم في منطقة بعيدة، ولم ينظر إلى الموضوع من زاوية مصلحة الوطن العليا.. بل لم يكلف نفسه أن يعرض هذه المصلحة وبالتالي وجهة النظر الأخرى.

وتظهر الرواية أن كثيراً من أبناء الوادي، من الذين سحقهم ظلم الطبيعة والمجتمع، لا يدركون كم هو عجيب، وكم هو عظيم ما يحدث في منطقة السد.. 'أنت وأنا وكل الشغيلة في مشروعنا، تغير الطبيعة والمجتمع'[١٤]. فقد لجم فيضان النهر بالسد، وهذا أول تغيير للطبيعة، وحين تمتلئ البحيرة تنبت الأشجار، وتهطل الأمطار فيتلاشى العطش والجدب، ولا تحريض على القتل، وهذا تغيير كبير للطبيعة أما تغيير المجتمع فمن خلال القرى النموذجية، يعيش الفلاحون في الأبنية الإسمنتية بدلاً من البيوت الطينية، سيشربون الماء النظيف ويستضيئون بالكهرباء، ويذهب أطفالهم إلى المدارس، ويذهب الآباء والأمهات في المساء إلى دور السينما.

وهم عندما يتظاهرون احتجاجاً على ترحيلهم إلى المنطقة الشرقية، يظهرهم الدكتور العجيلي وقد جلّل الحزن والانكسار

وجوههم، لا تبدو عليهم علائم الثورة أو العنف فكل ما يريدونه من الدنيا وأهلها أن تتركهم الدنيا وأهلها بسلام، تفرقوا عندما جاء الشرطة يحملون على أكتافهم بنادقهم وفي أيديهم الخيزرانات التي يعرفها الفلاحون جيداً'[١٥]، فيظهرون بسلبية مفرطة فلا هم يقتلعون، ولا هم يدافعون عن وجهة نظرهم.

سد الفرات والتغيير الاجتماعي:

يكمن وراء إشادة سد الفرات، المساهمة في النهضة الاقتصادية لسورية، ومعلوم ما للنهوض الاقتصادي من منعكسات اجتماعية ودرء لأخطار فيضانات سنوية تسبب كوارث لفلاحي وادي الفرات، إن الفلاحين سيقومون بنقله اجتماعية من حياة قديمة يسود فيها النمط العشائري إلى حياة جديدة يسود فيها نمط بسيط من حياة المدن، ولقد آثر الدكتور العجيلي تصوير التحول الاجتماعي على صعيدين:

١- صعيد الحياة المادية لأهالي منطقة الغمر.

٢- صعيد الحياة العاطفية لنموذج متقدم من أهالي المنطقة.

لقد انتقلت حياتهم من 'بيت الشعر' إلى المنزل الطيني ومن ثم إلى المنزل الحديث المبني من الإسمنت بعد إنشاء السد ونشأت جمعيات تعاونية للفلاحين الذين أصبح لهم ممثلون، والتحول الاجتماعي في 'المغمورون' أحادي الجانب، بمعنى أن توكيد

شخصيتي عثمان وندى وعلاقة الحب بينهما، جعل المستوى الاجتماعي بادياً من خلال علاقة الحب وحدها. وهي جانب من الجوانب الاجتماعية كما أنها شديدة الخصوصية، تدخل فيها عوامل ذاتية، فهل جاءت ندى إلى منطقة السد للمساهمة في دفع عملية التحول الاجتماعي؟ وهل هناك دوافع فكرية لقدومها؟ أم أن قدومها لا يعدو كونه مللاً طبقياً، ونوعاً من المغامرة التي تستهوي المترفين لريادة المجهول، والبطل أكبر من المجتمع الروائي الذي يتحرك فيه، ومشكلاته الخاصة غير قادرة على احتواء مشكلات المجتمع الذي تدور فيه، فعثمان ليس من أهل المنطقة بل هو بدوي جلى مع أهله إلى قرى الغمر، لم تساعده أعراف المجتمع ومواصفاته على الاندماج الحقيقي فيه، وندى فتاة قادمة من العاصمة تحمل إرث الطبقة البرجوازية فلم يعبرا عن مشكلات المنطقة التي كانت مسرحاً لحبهما، ذلك الحب الذي لم يثبت أمام صعوبة الاختيار لديهما، فلا حبه جعله يرضخ لشرطها بالبقاء، ولا حبها جعلها توافقه على الهجرة.. وكأني بهما قد وجدا المبرر للتحلل من حب كاد أن يجمعهما..

الخلافات العشائرية ومنعكساتها الاجتماعية:

تطرح الرواية مسألة الخلافات وقانون العشيرة في حلها، ووضع جابر المبروك والد عثمان الذي يمثل ذلك خير تمثيل..

جابر المبروك بدوي أصلاً، كان يعيش في بيت الشعر، اختلف مع ابن عمه على السقاية من ماء القليب، كانت النتيجة قتل جابر لابن عمه، وجلائه بالتالي عن العشيرة، فاستقر مع زوجته هدلة وابنهما عثمان في منطقة كان قدرها أن تكون ميداناً لمشروع اقتصادي تغمر أراضيها، وقد عزا الدكتور العجيلي فعلة جابر إلى الطبيعة القاسية، وحرارة الجو اللاهبة، وظروف العيش الضنكة، ويبدو أن هناك سبباً آخر للقتل وهو صراع جابر مع ابن عمه على الزواج من هدلة. (قتل ابن عمي ناس كثيرون غيري قتله حر ذلك اليوم الجهنمي، وعطش قطعان الغنم في البادية المقفرة، وماء القليب البعيد الغور المر المذاق، قتلته الشمس التي كانت تلتهب في وسط السماء، فتذيب مخ الرجال في رؤوسهم، وترفع الأيدي في الخناجر حتى تنغرس في الصدور.. نعم.. الشمس والبئر والعطش والبادية هي التي قتلت خلف ابن عمي وقتلتني معه)[١٦].

كانت النتيجة نفي جابر من العشيرة، مع زوجته من بادية الشام، وجاؤوا إلى الجزيرة، فهم فيها عرباء.. جالون.

ونتيجة وضعهم الاجتماعي هذا، يطلب عثمان يد فتاة فيلاقي الرفض، ليس من أهل البنت بل الذي رفضه هو المجتمع، مجتمع هذه المنطقة، فمجتمعهم له قوانين صارمة سارية المفعول على من يعيشون فيه.

فظلم الطبيعة هنا أدى إلى قتل جابر لابن عمه، وظلم المجتمع.. رفض خطبة عثمان لفتاة منطقة الغمر. لأنهم غرباء في أرض غير أرضهم، وعشيرة غير عشيرتهم، ولعل حادثة القتل أدت بجابر إلى نقلة اجتماعية، من مرحلة الرعي وبيت الشعر إلى الزراعة وملكية الأرض وسكنى الأكواخ.

أخلاق وقيم متنوعة:

ترصد الرواية أخلاق وقيم الطبقة البرجوازية من خلال رموزها في مجتمع الرواية وهم: ندى، أنيس، وحورية، فندى سليلة الطبقة البرجوازية، ابنة العاصمة المثقفة التي تقرر العمل في مشروع اقتصادي كبير شكل حلماً، ولعله إلماح المؤلف بمشاركة الطبقة البرجوازية في بناء صرح هذا المشروع، وقد عزا الدكتور العجيلي قدومها إلى تفرد في التفكير والسلوك امتازت به ندى.

وليعبر عن ملل طبقي، وعزوف عن سلوك أفراد هذه الطبقة سواء أهلها في دمشق أو معارفها في بيروت، فرفضت عروض العمل المغرية، وأدارت ظهرها للسيارات الفارهة وجاءت إلى منطقة السد تلبس ثياب رعاة البقر، وقد كان عثمان يصر على رؤيتها من طبقة مختلفة ومستعلية على هؤلاء الناس الذين هو منهم، ويعتبرها مترفعة عنهم، تخدمهم بنفسية المتفضل عليهم، ويتهمها بأنها غير مخلصة في جهدها الذي تبذله، وغير صادقة في حبها لأولئك

الناس وجل ما كان يخشاه عثمان أن يكون حبها نزوة عابرة، ويلاحظ أن أقوالها وتصرفاتها تبرهن على أنها لم تنفصل عن طبقتها البرجوازية، بل إنها أخذت تستعيد حياتها السابقة عندما أتتها طبقتها في صورة أنيس المتعهد وأخته حورية، وانصرافها عن عثمان طيلة فترة وجود حورية التي تشك بأن شيئاً ما بين ندى وسائقها عثمان، لا تلبث هذه أن تصرح بأن الصلة التي تربطها مع عثمان هي الحب، فتجيبها حورية مستغربة ومستنكرة 'حب؟ خبريني هل نمت معه'؟، ثم أضافت، لو قلت نعم لسررتني، ذلك يحل مشاكل كثيرة، ويردك إلينا سالمة.. سالمة التفكير'[١٧]، في الوقت نفسه تطلب حورية من ندى أن تكون زوجة لأخيها أنيس، وتصرح لها بأنها جاءت لإنجاز هذا المشروع، فتستغرب ندى تصرفها.. فكيف تريدها زوجة لأخيها.. وتسألها إن كانت قد نامت مع عثمان وتكون مسرورة لو أجابتها بنعم؟! فتجيبها حورية بمنطق الطبقة البرجوازية 'نعم يا حبيبتي لو نمت معه لسررتني، إذ تكونين تخلصت من عقدة الاشتهاء لفلاح أعجبتك فحولته، وعدت الى وسطك ومستواك بنظرة صافية وأعصاب متزنة ولكنك لم تفعلي. لذلك ظلت نظرتك مغبشة.. تشتهين هذا الرجل وتسمين رغبتك حباً'[١٨]، فهي لا ترى في علاقة ندى أكثر من اشتهاء.. ورغبة في فلاح.. وتبرهن ندى على سرعة عودتها إلى صفوف طبقتها بسفرها مع أنيس وحورية إلى حلب، وغزل أنيس وندى، وسكوتها

على هذا الغزل، ثم لا تلبث أن ترتبط بأنيس برباط الزواج.. وأنيس هذا يعترف.. بأنه قد جاء إلى منطقة السد كي يأخذ حصته من المغانم، فهنا بقرة حلوب، ومثل كثيرين غيره جاء حاملاً سطله، كما يحاول استغلال موقع ندى للحصول على مشاريع تعهدات بأساليب ملتوية فعندما ترفض، يخبرها بأن غيرها مستعد لتقديم الخدمات وقبض الثمن.

وعندما يحضر أنيس برفقة ندى حواراً مطولاً حول مسألة التهجير إلى منطقة الحزام الغربي بين اللجنة المكلفة بإقناع الفلاحين وسكان منطقة الغمر، كان أنيس مهتماً بجمال بحيرة الغمر، ناسياً ما يضطرب في صدور الناس، بل إنه في طريق العودة مع ندى كان يتفحص الطريق تمهيداً لتعهده وتعبيره.

(١) تجربة الرواية السورية، سمر روحي الفيصل – ص٢٨.

(٢) رواية 'المغمورون'، الدكتور عبد السلام العجيلي – ص٥٩.

(٣) 'تجربة الرواية السورية'، سمر روحي الفيصل – ص٣٠.

(٤) 'المغمورون'، الدكتور عبد السلام العجيلي – ص١١.

(٥) المصدر نفسه – ص١٣٧.

(٦) المصدر نفسه – ص٢٠٦.

(٧) المصدر نفسه – ص٣٤٠.

(٨) المصدر نفسه – ص٣٤٣-٣٤٤.

(٩) المصدر نفسه – ص٣٤٨.

(١٠) المصدر نفسه – ص٣٤٩.

(١١) المصدر نفسه – ص٣٧٩.

(١٢) المصدر نفسه – ص٣٧٦.

(١٣) المصدر نفسه – ص٣٤٢.

(١٤) المصدر نفسه – ص٥٠.

(١٥) المصدر نفسه – ص٣٧٠.

(١٦) المصدر نفسه – ص٢٩.

(١٧) المصدر نفسه – ص٢٥٦.

(١٨) المصدر نفسه – ص٢٦٠.

ألوان الحب الثلاثة(*)

تغطي الرواية مساحة زمنية، تبدأ قبل وحدة ١٩٥٨ بين سورية ومصر بعام، وحتى وقوع الانفصال، من خلال الشخصية الرئيسية، المحامي نديم، راصدة معاناته وقلقه. وقد رسم المؤلفان شخصيته من الداخل، وعبّراً عن آماله، وطموحه، في قيام الوحدة العربية كهدف سياسي جماهيري وشخصي، حيث كانت السياسة قريبة الوجود من نديم في كل مراحل الرواية، التي حاولت تحقيق مزج عضوي بين المستوى الشخصي، والمستوى الاجتماعي، والواقع السياسي. كما تحمل الرواية، طعوماً، وتلاوين مختلفة تجري في عديد من المسارب.

أحداث الرواية:

المحامي نديم، نزيل دائم للفندق الكبير بدمشق أحد فنادق العاصمة الفخمة، التي وصلها مساء بسيارته الرياضية السريعة المكشوفة، وفي ليلة واحدة، التقى دفعة واحدة، بكل من سميحة، وسوزانا، ونازك، ثلاثة أنماط من الصديقات، تتاهبن ساعات

إقامته القصيرة في دمشق، وتركن فيها ثلاثاً من التجارب العاطفية، بل هي أكثر من أن تسمي تجارب، هي آثار ألوان من الحب ثلاثة.

بدءاً التقى نديم بسميحة، الفتاة الدمشقية، ساكنة حي المهاجرين، والتي تعرف إليها وأثر في نفسها بعد نقاش سياسي مع أبيها، دار حديثهم حول فكرة زواجهما، التي طرحها نديم في أعقاب نزهة ليلية، فاستمهلته، سميحة، شهراً، أو شهرين، لتعطيه كلمتها، فوجد في ذلك مبرراً للتنصل من طلبه، حاورته على صفحات الرسائل، لكنه أصرّ على موقفه، انتهى لقاؤهما بمشهد غرامي، في بيتها الخالي من أهله، لوجودهم في المستشفى، عاد بعدها إلى الفندق بعد أن عاش لحظات سعادة، وهناءة، مع الجمال الدمشقي اللذيذ، مع سميحة ذات الجذور الشامية الأصيلة، الضاربة في أرض هذه المدينة العتيقة، علم من لحظة وصوله أن سوزانا الفتاة النرويجية، نزيلة في الفندق ذاته، وهي التي تعرف إليها في بيروت، حيث تقتضي ظروف عملها في إحدى شركات الطيران العالمية، الإقامة في لبنان أربعة شهور، وكانت لقاءاتهما في شقتها ببيروت عاصفة، تصور نفسه فيها، وكأنه هارون الرشيد في جو الحريم، وإن سوزانا، جارية ترقص لسيدها، على نغم شهواني، هو قارب الموز 'يغنيه' هاري بلافونتي' وقد فرقتها السياسة، حين مست جملة لاذعة منها، إحدى بديهياته السياسية المقدسة، وها هي تسأل عنه في الفندق الكبير، وهو يتهرب من لقائها لكن إصرارها جعله يرضخ..

يقضي الشطر الثاني من ليلته مع سوزانا في ملهى الكازا، ليعود على أمل اللقاء بنازك الفتاة المصرية التي التقاها في مصعد الفندق قبل ساعات، وليلبي رغبتها في جولة بسيارته المكشوفة على ضفاف بردى، لكنه يكتشف أن الموعد الذي ضربه لها قد فات، خلال لقائه بالفتاة النرويجية التي عاش معها اللون الثاني. يلتقي في اليوم الثاني بنازك التي تعمل مرافقة مع الوفد المصري في المؤتمر الأسيوي الإفريقي، فيدخلان في حديث سياسي ثقافي يتحدثان فيه عن (مالرو) وسيمون دوبوفور) وعن كومونه باريس، ثم يحضران في الفندق حفل شاي، وكانت قد دخلت نازك الردهة وهي تمسك ذراع العجوز الهندية، تلبس لباساً هندياً، وتلف مثل العجوز قدها المشيق بالساري الهندي، وقد أدارت كلماتها رأس نديم وملأته نشوة، لقد أحس بها وكانت تقول له:

(لم ألبس هذا إلا لك.. ليس يهمني في الحفل أحد سواك)[1] لم يستطع نديم أن يفي بوعده لنازك للخروج في جولة مسائية بعد منتصف الليل لاستغراقه في اللون الثاني، فيفوت الموعد مع الفتاة ذات العينين الخضراوين والشعر الكستنائي السبط والقامة الدقيقة الطويلة يلتقيها نديم في ردهة الاستقبال صباحاً لتعلمه أنها عائدة الى القاهرة، وكتبت رقم هاتفها على ورقة أعطتها لنديم (إذا جئت القاهرة فستجدني في هذه النمرة، حتى هذا اليوم من العام القادم ستجدني أما بعده فلا تحاول حتى أن تبحث عني بعد ذلك..)[2] وتطلب منه ألا

يبحث عنها بعد الدقيقة الأولى التي تلي مرور عام، فربما ذهبت الى باريس، فاستأجرت مانسارد، في حي الفنانين بباريس في مونمارتر أو مونبارناس.. وهذا هو اللون الثالث.

قبل أن ينتهي الأسبوع الأول على إعلان الوحدة، وقيام الجمهورية العربية المتحدة كان نديم في القاهرة في فندق سمير اميس يتحدث مع عادل بك الذي يمثل نموذجاً للبرجوازية القاهرية فهو يحول كل شيء إلى فائدة مادية يجني من ورائها كسباً ما، وهو أستاذ القانون الدولي في جامعة القاهرة وأمين سر مجلس الدفاع عن حقوق الإنسان سبق له أن شارك في وضع دستور ديمقراطي مثالي لقطر عربي يحكمه شيخ عشيرة، وعادل بك هذا صديق حميم لنديم وكان في استقباله في سمير اميس، وكانت السياسة ثالثة بينهما، يبحث نديم عن نازك في القاهرة معتمداً في البداية على الورقة التي مضى عليها عام في جيبه وقد امحت بعض أرقامها استعان بدليل الهاتف لمطابقة أرقام ورقته على أرقام وزارة الخارجية المصرية بل إنه ذهب إليها سأل عنها باسمها لأنه لا يعرف أكثر استعان بوصفها الذي حضر في مخيلته، فيجيبونه (هذه ليست موظفة هذه ملكة جمال أبحث عنها في قصور الزمالك وفلل الجيزة وعلى شاطئ النيل)[٣] هام على وجهه في شوارع القاهرة بحثاً عن نازك، حتى هده التعب أغراه إعلان في شارع الهرم في ملهى فلوريدا لفرقة استعراضية إسبانية، فيلج إحدى المقاصير المسدلة الستائر.. فنانات يرقصن على إيقاع موسيقي

صاخب، تجالسه فتاة بثيابها الفاضحة، وهو الذي يعرف أجواء الملاهي بل هو خبير فيها يعاقر الخمرة يذهب مع نازك في رحلة خيالية إلى أسوان فيصف الدكتور العجيلي أجواء أسوان وعبقها وجمالها يصف المطعم الفخم والمشرب، يفيق بعدها نديم من حلم اليقظة، يعود إلى الفندق يقرر الاستعانة بعادل بك للبحث عن نازك ويتوقع أن تكون في نادي الجزيرة القوقعة الصلدة للارستقراطية القاهرية فيذهبان برفقة بارعة ابنة أخ عادل بل وسكرتيرته طالبة الحقوق والدها مهندس كبير في الاسكندرية، ويصف الكاتب نادي الجزيرة ورواده حيث الوجوه الناعمة والبشرات البيضاء المتألقة والعيون الملونة والشعور الشقراء والسوداء والملساء وحيث الطفل مع الطفل، والفتاة مع الشاب والسيدات يثرثرن والرجال يلعبون أو يصدرون الأحكام الهوائية على سياسة البلاد وسياسة، العالم وقادته أو يغازلون زوجات بعضهم)[٤] لم يصل نديم الى نتيجة في بحثه، من خلال تجواله يرصد العجيلي أفراح أحياء مصر الشعبية بأعياد الوحدة ويصف أهازيجهم، ومشاركة نديم لهم في الوقت الذي تسير فيه الحياة الاجتماعية في نادي الجزيرة والأحياء التي تغذيه سيرها المعهود دون اكتراث أو مبالاة بحدث قومي كبير يظلهم، يبدأ نديم بعدها بطرح الأسئلة على نفسه التي أجهدت بالبحث عن نازك وما الوحدة؟ وما نازك 'اليسا هما وجهين' لحقيقة واحدة؟ هل من المعقول أن تجسد حادثة سياسية قومية حب امرأة رائعة الجمال)[٥]

أسئلة ملحة باتت تؤرقه، ولا تخلوا من لوم، فلماذا أتى للبحث عن نازك؟ ولماذا لا يتناساها ويعود الى حياة لاهية عابثة، ضاحكة باسمة، ارتآها لنفسه بعد عودته من جولة أوروبية اكتشف فيها معاني كانت مجهولة لنفسه، وإن قمة اللذة في حياة الرجل هي في علاقته بالجنس الثاني المكمل له علاقة صحيحة وجميلة ومشبعة لحاجات الروح والجسد، وهو الفتى الذي شارك بالمظاهرات ضد الفرنسيين والشاب الذي دخل كلية الحقوق، وامتهن المحاماة ليعيش الجو السياسي في بلاده فلقد اقترنت السياسة في بلادنا والبلدان ذات النظام الديمقراطي دوماً بالمحاماة والمحامين، فمن المحاماة الى مقعد نيابي فمنصب وزاري بعد عودته من أوروبا ابتعد نديم عن السياسة، ولعله ابتعد عنها بمفهومها الضيق لكنه لم يستطيع أن يبتعد عنها كفلسفة لحياة الإنسان في المجتمع، وتاريخ لحياة الأمم وكمثل أعلى لذي فكر جاد وذي قلب إنساني النوازع..

إن نديماً عاشق وعشقه من النوع العجيب، فقد أخذ يؤثر على شخصيته بل إنه يؤثر على توازنه النفسي، أنه يفكر بالوحدة بين سورية ومصر من خلال نازك' وينظر إلى اتحادهما من خلال اتحاده بنازك، لقد اصبح يحمل حب نازك في أعماقه فرحاً مضيئاً حيناً وهماً ممضاً ساحقاً حيناً آخر (نه الحب الكبير هو عطاء وإنتاج هو خلق جديد يخلق الإنسان ويخلق الذرية ويخلق الإبداع) هذا الحب العظيم فيه قوة سحرية عجيبة إنه عشق وهيام بنازك

التي هي الوحدة العربية حلمه الشخصي وحلم الجماهير التي تحلم بدولة عربية بعد أن أنجزت الاستقلال من الاستعمار وإلا لماذا سافر نديم الى القاهرة في أسبوع إعلان الوحدة في نفس الوقت الذي يوجد فيه وفد سوري للمباحثات بشأن الوحدة، إنه العام الذي كانت فيه الجماهير تعيش هاجس الوحدة.

وقد طرح عليه عادل بك فكرة الزواج من بارعة كبديل عن نازك.. الخمرة المعتقة التي صنعتها الآلهة قطرة.. قطرة.. واحتفظت بها لمسراتها الخاصة.. يقرر السفر إلى باريس للبحث عن نازك، رابط أسبوعين في حي الفنانين بباريس، صادق الصعاليك وعشاق الفن الحقيقيين صادق الوجوديين هبط الى الكهوف وجال في الأقبية.. وعادت الأسئلة تلح على مخيلته هل لنازك وجود حقيقي؟ ولعل فكرة التأكد هذه قد دفعت إلى الاخلال بتوازنه النفسي.. عاد الى دمشق ثم غادرها الى حلب يجر أذيال الخيبة والفشل، بعد أن تلقى الصفعة تلو الصفعة.. وذابت أمامه الأهداف التي يسعى إليها فكان ملاذه الوحيد على أرضية الواقع الصلبة أمه الحنون، التي تعيش مع ابنها المتزوج وابنتها الصغرى في بيت العائلة الفخم في حي السبيل، أن نديماً يعاني من النكوص[٦] فلعل أمه تلملم الأشلاء المبعثرة بعد أوبته الفاشلة، فهو يدفن رأسه في حجرها، مكدوداً مرهقاً، وكأنه الشيء الوحيد الذي يصله بعالمه الحقيقي ويبثها أشجانه (واه يا أمي.. ماذا استفدت من هذا السن

وأيـن قضيـت أعـوام حيـاتي في زهـو فـارغ.. ومغـامرات وضيعـه.. وكبريـاء فارغـة، بمـاذا اهتممـت؟ بالسـيارات والـثرثرة السياسـية والعلاقات الاجتماعية المصطنعة)[٧].

بدأ يحس أن حياته سارت وفق اتجاهات خاطئة ويـود لـو يعود طفلاً ليبدأ سيرها وفق ما يريد هو لا وفق ما تريـد الظـروف ويريد الغوص في طفولته ليجد فيها السلام الذي ينشده.

يتذكـر (حـي الكلاسـة) الحـي الشـعبي وبيتهـم فيـه، وابنـة الجيران كوثـر، باحـة دارهـم الفسـيحة شـجر الكبـاد يشـم رائحـة الطبيخ التي لا تزال تزكم أنفه، يتساءل لماذا نقلهم أبوهم مـن هـذا الحـي الشـعبي (لقـد انـتزعني مـن تربـة حارتنـا، فقصـف جذعـي، وابقى جذوري، لقد أضاعني منذ ذلك الحين أني لم أنقل من هناك يا أمي، ما زلت ثابتاً بجوار كوثر، لقد تخلفت وراءكم..)[٨].

صراع مكبوت بدأ يتفجر في نفس نديم، وبدأ يطفو على السطح بين الجذور العميقة الضاربة في الحي الشعبي والجسم الذي نقل إلـى (حي السبيل) الراقي، فقد ترك قلبه هناك متشبثاً بالأصالة والعراقة والنقاء ونقل بجسمه.. أما الهوى فقد تركه هناك.

إنه يسترجع زمن طفولته ولعل كوثر وهـم مـن الأوهـام.. أو هـي بديلة عن نازك.. الوهم.. الحلم.. أو لعلها كوثر قد كبرت.. وهـل يمكن أن تكبر إلا في عالم الحلم والخيـال.. إنـه لا بد مريض.. على أعتـاب

الظلام.. الجنون، يسافر إلى دمشق ويستنجد بصديقه الدكتور حمدان صديق الدراسة، ورفيق المظاهرات الذي جمعته وإياه فكرة واحدة هي الوحدة العربية والعمل لها والنضال لتحقيقها ولم يدع الدكتور حمدان للسياسة أن توجه مصيره فاختار التخصص في الطب النفسي في باريس وفتح عيادة في دمشق ولكن الظروف والأقدار ساقته أن يكون أحد المسؤولين السياسيين في دولة الوحدة، فاستلم مركزاً تنفيذياً لا يمت لاختصاصه بصلة فوظف قدراته وإمكاناته للوحدة (وهو يساهم في شفاء الملايين بعد أن كان واحداً من الذين يساعدون على شفاء الأفراد) قرر الاستعانة بالدكتور حمدان لقناعته بأنه أصبح شخصاً غير طبيعي وأنه لم يعد بمقدرته التمييز بين الوهم والحقيقة.. بين الخيال والواقع (لقد اختلطت الأشياء وماجت الصور وتنافرت الأزمان وتباعدت الأمكنة تطاير الوجود إلى شظايا من الصور أخذت تموج في مخيلته كموج عاصف)[٩].

يقرر الدكتور حمدان وضوح الرمز في حلم نديم فنازك هي الوحدة التي ذهب ليفتش عنها في القاهرة وهو ملتهب العشق لوطنه وأمته تناهبته الأحداث فانجرف في تيار الملذات (وبدلاً من أن تندلق ذاتك إلى الخارج وتمتد امتداد وطنك انسحبت إلى الداخل..)[١٠].

إن نديماً عاشق لأمته يكتوي بحبها ولكنه سلبي أمام أحداثها يشعر بالذنب وتبكيت الضمير عندما تحول حصار الأعداء إلى لهب.. ويرى الدكتور حمدان أن الوحدة انتصبت في وجدانه

بصورة فتاة رائعة الجمال كمحاولة لا شعورية للتكفير عن الذنب ويضرب له مثلاً في الجنرال ديغول الذي يرى فرنسا بصورة عذراء اللورين أي بشكل امرأة حلوة نقية طاهرة. (اتهم مالرو ديغول بأنه تزوج فرنسا)(١١).

علاج نديم برأي الدكتور حمدان بقذف ذاته إلى الخارج.. الزواج والانتظام في العمل السياسي.. وتسوق الظروف سميحة لنديم يلتقيان صدفة في الشارع، تعرف أنه قد امتلك بيتاً في المهاجرين، يتوسط لإخراج أخيها صفوان الذي اعتقل وذلك عن طريق صديقه حمدان ثم يزور سميحة ويدخل في نقاش مع الجدة سليلة الباشوات التي تعجب من فكرة زواج نديم من فتاة مصرية وتثور وترغي وتزيد وهي الكارهة لوجود المصريين يتفق نديم مع سميحة على الزواج وهي تمارس مهنة التدريس بقيت خلال عامين من الحياة الزوجية ينبوع هدوء وسلام.. لكنها لم تستطع أن تمتص من الطوفان الحبيس إلا بمقدار ساقية واهنة بالنسبة لمستودعات الأنهار العظيمة فاكتفت بخيط رفيع من العاطفة يخرج من نفسه كما اكتشف نديم مدى السذاجة التي تنطوي عليها رواسبها العقائدية والعائلية وأن ثقافتها الفلسفية والنفسية لم تؤثر فيها إلا كما يخدش اظفر كتلة فولاذية.

وإنه ما كان بمقدورها أن تغير جذورها وطبيعتها فما للثقافة من أثر في تفكيرها وسلوكها وفكرها..

في السنة الأولى للزواج تناسى نازك تماماً وشفي من مرض هواها الجارف الغريب، بل كف عن البحث عن ماهية هذا العشق الأليم خوفاً من انبعاثه من مراقده لكنه في السنة الثانية أخذ يحن إليه حنيناً خافتاً حيناً، وجارفاً حيناً، وبدأ يقلق لعدم حمل سميحة إلا أن حياته كانت تسير سيرها العادي بعد أن وقر في نفسه بأنه إنسان عادي لا يتمتع بأية قدرات خارقة كما كان يتوهم ويظن، ووجد الراحة في هذه النقطة باعتباره إنساناً عادياً.. حيث كانت مهارته بالحديث وسرعة إقامته للصلات الاجتماعية مع الآخرين ودخوله إلى قلوب سامعيه من الرجال والنساء كل ذلك يوحي إليه بأنه كوكب يضيئ ونجم تشرئب إليه الأنظار، إنه يدرك الآن أن تلك القدرات لا تخرج عن كونها ألعاباً بهلوانية أو أنها مجرد قشرة زائفة.

يترك الدكتور حمدان العمل السياسي ويعود لخدمة مرضاه، وهو مقتنع أنه ربما يمكن لأي إنسان أن يحل مكانه في منصبه التنفيذي، ولكن لا يمكن لغير الدكتور حمدان أن يحل محله في عيادته، ولعله قد آثر الانسحاب من الساحة السياسية لأخطاء بدأت تتراكم في عهد الوحدة طبعاً استاءت زوجته لأنها خسرت الأبهة والهالة.. وكان الدكتور حمدان متشائماً مما آب إليه الوضع السياسي، فهو بدأ يرى أن كل شيء غير طبيعي حتى الحياة نفسها غدت افتعالاً وتصنعاً وزيفاً بل وصولية ونفاقاً، ويؤكد الدكتور حمدان أن هناك محاولات لذبحنا كالخراف (ومطلوب منا أن

نتيه.. نضيع.. نألف العار وأن أدمغة هائلة تنشط لأجل ذلك وسنخرج من مختبراتها بالشكل الذي تريده.. ارفع رأسك عالياً واشرب من نبيذ البؤس)[١٢].

صبيحة الانفصال بين سورية ومصر تزف زوجة خال سميحة البشرى لسميحة بحدوث انقلاب ضد الوحدة تستقبل النبأ بفرح غامر وتستعجل لبث البشرى لنديم الذي كان غارقاً في نومه لفهمها أنها تسره كثيراً بهذا النبأ فتنشب مشادة حادة بينهما حيث اعترفت له بأن الانفصال استقلال، وإننا كنا شبه مستعمرين وإنها تعلمت ذلك من جدتها وخالها وعمها فيغضب نديم لمنطقها الذي لم تؤثر فيه دراستها الجامعية ولا المذاهب الفلسفية والمدارس النفسية ولم تتعلم من كل هذا صحة التفكير إنها متأثرة بالجو المحيط بها أشد التأثر فهؤلاء الذين يراهم نديم متخلفين فاسدين رجالاً ونساء تعودوا الدعة والخمول والكبرياء الفارغ والأمجاد العجفاء ويتركها نديم مع حملها ويذهب إلى حلب وقد صب جام غضبه على دمشق وهو ساخط عليها أشد السخط 'اللعنة على دمشق كل شيء فيها يعذبني'[١٣] لعل سخطه بسبب القضاء على أمل عاشه بكل جوارحه وأحاسيسه فدمشق مدينة ذات سر عجيب استعصى على الجميع كريهة معشوقة..

يتمنى السكن في حي الكلاسة الشعبي، إنه يعتبر الانفصال شرخاً عميقاً في كيانه شقه إلى نصفين ولعل المؤلفين يشيران إلى

مصر وسورية في التاريخ لقد بدأ نديم يصل إلى حافة الجنون، فهو يتمنى أن تجهض زوجته وهي في شهرها التاسع، إنه لا يريد للأمل أن يرى النور فقد كانت قواه الفكرية شبه معطلة وتوازنه النفسي بدأ يختل لقد دخل في نكوص جديدة فبدأ يبحث في كتب الصوفية بعد الفشل والتمزق الذي عاناه فقد كانت كتب الصوفية تلاقي هوى عميقاً في نفسه إبان المرحلة التي يجتازها، فالحقيقة توجد على الضفة الأخرى من الوجود، والأصالة والطهارة والحب لهم وجودهم الحقيقي في الجانب الثاني من الكون فلقد مات وهو حي، وانتقل إلى عالم الغيب وهو بعد في عالم الأحياء وأخذ يعايش الصور التي رسمها ابن القيم لدار القرار فشعر بإشراق داخلي، إنه يحيا سلام الجانب الآخر من الوجود فيتدخل الدكتور حمدان للمرة الثانية لإصلاح الحالة التي آل إليها نديم.

ويرى أن التفكير في العزلة مركبة تقود إلى الجانب المظلم من العقل وأن التفكير عندنا وسيلة للشقاء والعذاب هذه النعمة التي تتحول إلى نقمة، (التفكير ينشد الخلاص والتقدم عند غيرنا أما عندنا فهو أقصر الطرق إلى درب الآلام كل شيء عندنا معكوس القيم الأخلاق والشعارات والإنسان نفسه غدا معكوساً ممسوخاً[١٤].

ينتشل 'الدكتور حمدان' 'نديم' من الهوة السحيقة التي انحدر إليها، بترتيب أمر عودته إلى زوجته وطفلته، تلك الزوجة التي كانت مع نديم مثار إشاعات وتندر على المحامي المثقف الذي هجر

زوجته احتجاجاً على الانفصال، كانت النسوة في حي المهاجرين ينصحن سميحة بعدم العودة لهذا الزوج الغريب الأطوار وذلك في نزهة عائلية ماجنة في سهل الزيداني..

سافر نديم إلى دمشق وهو يقول بذهول (إن ابنتي تناديني لقد ارتسمت على جبهتي كرؤى..) وكان حمدان يرى أن 'نديم' يدفع ضريبة المرحلة الانتقالية للأمة والمجتمع، تلك التي تعرّض الواعين من أفراد الأمة والمجتمع لمثل هذا اللون من المصير (إن قدراتنا النفسية والعقلية أقل بكثير من حجم الأحداث والكوارث والهزائم التي تلمّ بنا والتي ستقع علينا)[١٥].

ودخل نديم بيته فوجد سميحة بانتظاره، يسألها عن البنت (كيف هي؟ لقد سمعت بأنها جميلة حلوة تنفذ إلى القلب كشعاع الإيمان)[١٦].

إنه وجهاً لوجه أمام الطفلة الأمل الوضاء والمستقبل المشرق الذي طالما حلم به (ركع عند سريرها وضع قدميها على خديه، أوقفته سميحة على قدميه.. فقام كالسكران، ووقف مشدوهاً مخدراً وأجابها هذه هي نازك.. إنها نازك.. إنها نفسها، إنما أتت بهيكلها ومعناها.. نازك.. نازك يا حبيبتي)[١٧]. إنها بداية لتحقيق الأمل تشتعل المآذن من فاس إلى (سُرَّ من رأى).. وكرنين الجلاجل في البيد.. أخذت الجملة الأخيرة تتردد في مسامعه.. قارعة

جمجمته منبهة منذرة كالقدر اليقظ.. من رأى.. وردد الصدى.. رأى.. رأى.. رأى..

المضمون الاجتماعي:

تدمج رواية ألوان الحب الثلاثة، بين المنظومة الاجتماعية والمنظومة السياسية فقد أراد المؤلف تحميل روايته مجموعة من الأفكار السياسية الاجتماعية فولجها من باب 'الوحدة العربية' الأمل الكبير لجماهير الشعب العربي، التي أنجزت الاستقلال، وباتت ترنو ببصرها لتحقيق هذه الأمنية الغالية، وذلك من خلال حديث الرواية عن مستوى شخصي ذاتي لشخصية روائية رئيسية على اعتبار أن هذه الشخصية قادرة على عكس المستوى الاجتماعي العام.

فقد فتحت الرواية صدرها للمناقشات الفكرية والسياسية والاجتماعية، فجاءت زاخرة بالفكرة المبثوثة في ثناياها، وعلى لسان شخصياتها ونلمح في الرواية نقاطاً عديدة تداخل فيها التعبير الاجتماعي بالتعبير السياسي، فمعرفة نديم بسميحة على أثر نقاش سياسي حاد مع والدها في بيتهم، وخلافه مع سوزانا لأنها مست إحدى بديهيات السياسية أما نازك 'فالسياسة التي دخلت بينها وبين نديم' (كانت سياسة من مستوى عال.. سياسة عالمية)[١٨]، علاقته بالدكتور حمدان سياسية فقد جمعتها المظاهرات ضد الفرنسيين والنضال لقيم الوحدة..

وتفرز الرواية جماهير الوحدة المبتهجين بها في مصر، إنهم أبناء الأحياء الشعبية.. العشرية..

والدقاق والأزهر والحسين وبولاق وليس حي الزمالك وجاردن سيتي.. والجيزة رواد نادي الجزيرة الذين يمارسون لهوهم اليومي غير آبهين بهذا الحدث الكبير.

وفي دمشق تقف ضد الوحدة الطبقة البرجوازية والتجار، وبقايا باشوات العهد التركي، ممثلين بالجدّين كما تسلط الرواية الضوء على أخلاقياتهم من خلال نزهة عائلية ماجنة في سهل الزيداني، وقد رسم المؤلف 'نديم' الشخصية الرئيسية في الرواية من الداخل وجعلها معادلاً للمجتمع، من هنا توفرت الرواية على العناية بها، فصوّرتها، وجعلتها تتحرك وتتصارع، تصاب بالإحباط فتتكفئ وتنكص.. ترصد كل خلجة من خلجات نفسه.. تسبر حالات القلق والتأزم والتمزق الفكري، فهو مأزوم فكرياً لم يستطع أن يترجم أفكاره إيجابياً فيشعر بتبكيت الضمير وتأنيبه، إنه يدفع ضريبة المجتمع الانتقالي تمزقاً فكرياً وتوزعاً نفسياً وإحباطاً ونكوصاً..[١٩] وقد اعتمد العجيلي وزميله على تقنيات الرواية من وصف وسرد وحوار ومونولوج بشكل خاص ليصلا إلى هدف الرواية، وتستدعي الرواية من القارئ حداً كبيراً من المشاركة الفكرية والوجدانية إذ تتسم المجتمعات التي انتقاها المؤلفان.. مسارح تتحرك عليها شخوص الرواية بالترف والرقي والبذخ.. إنها

مجتمعات الطبقة العليا بدءاً من دمشق مروراً بحلب وصولاً إلى القاهرة فيعيش القارئ مع أبطال الرواية أجواء عبقة ثرية مترفة.

فبطل الرواية هو نزيل دائم في الفندق الكبير أحد الفنادق الفخمة في العاصمة في تلك الفترة يستضيف المؤتمرات، ويستقبل مجموعات سياحية وطيارين ومضيفات شركات الطيران العالمية، وبعد زيارته القصيرة لمنزل سميحة في أحد الأحياء الراقية يسهر وصديقته سوزانا في ملهى الكاز أحد مرابع الليل في دمشق حيث تملأ جنباته ألحان التانغو الدافئة ثم تعزف الفرقة الموسيقية لحناً راقصاً من ألحان الكاليبسو التي غزت العالم في تلك الأيام فتجمع بين ثورة الحيوية الفائرة ودفء الحنين العاطفي، يرقص نديم وسوزانا، ويعجب نديم من طبيعة أجواء الملاهي.. حيث ينعم روادها بنعمٍ محرمة على أبناء بلدنا، وحيث يستطيعون الاجتماع إلى بضع فتيات لا يكون لهم حظ منهن إلا النظر فينشرون تحت أقدامهن المال بلا حساب...

أما عندما يذهب إلى القاهرة... فهو نزيل فندق سميرا ميس، وإذا سهر ففي شارع الهرم حيث يجذبه وجود فرقة إسبانية في ملهى فلوريدا... حيث يرقص على الموسيقى الصاخبة... وحين يرتحل بخياله مع نازك إلى أسوان، فإن الدكتور العجيلي ينتقي أماكن راقية فيصف أسوان وجمالها وطبيعتها الساحرة، ويصف مطعماً في فندق أسوان بأقواسه الأندلسية وسجاجيده المخملية

حتى صحن السلطة رآه من خلال عينيه المسحورتين، وكأنه لوحة انطباعية وعازف البيانو يعزف ألحان (الحب المسحور) لدوفالا، فالجو كله إشراق، إشراق أسوان، وإشراق الأندلس، ويصف المشرب... مقاعده... مفارش الموالد... الأضواء الخافتة... الموقد الاصطناعي تغمره نشوة عارمة (ارفع كأسك عالياً واشرب من نبيذ البؤس... في الوضع الذي أنا فيه الآن مستعد أن أشرب كل بؤس العالم وأحوّله إلى فرح نشوان)[٢٠].

بعد أن يقرر نديم الاستعانة بعادل بك للبحث عن نازك يذهبان إلى منزل عادل لتناول طعام العشاء، يقع منزله في حي الجيزة، (فيلا) باذخة الألوان والأضواء، صالون كبير، مقاعد ذهبية، سجاجيد مشتعلة، ثريات متوهجة يسأله نديم، وقد أُخِذَ بجو البيت (إنك تعيش حياة باذخة) فيجيبه عادل (إنني أكسب كثيراً فأنا لا أصرف دقيقة من وقتي إلا مقابل كسب أناله... يقدم لهم الخدم بملابسهم الرسمية الكونياك بأقداح من الكريستال مع اطباق بعضها معروف، وأكثرها مجهول، ثم يكتشف نديم سر هذا الثراء الباذخ عندما يعرفه عادل بك على زوجته (جيهان خانم) التركية الأصل من عائلة (يلدم باشا) بملامحها العادية البعيدة عن التناسق، يذهبان بعد ذلك إلى نادي الجزيرة برفقة (بارعة) نجمة نادي الجزيرة ابنة كبير مهندسي ميناء الإسكندرية أمها يونانية الأصل... فدم هيلين يجري عروقها...

نادي الجزيرة:

قوقعة الأرستقراطية القاهرية ومجتمع الطبقة العليا والوسطى حيث يجتمعون في هذا النادي العالمي الطفل مع الطفل والفتاة مع الشاب والسيدات يثرثرن والرجال يلعبون أو يصدرون الأحكام السياسية الهوائية أو يغازلون زوجات بعضهم... إنهم يمارسون حياتهم الهامشية التافهة... والنادي بديع التنسيق... الموائد المصطفة حول حوض السباحة، صالونات داخلية، ملاعب التنس والمبارزة، ويلاحظ عليهم عدم اكتراثهم بحدث الوحدة، بينما أبناء الأحياء الشعبية يهزجون ويمارسون طقوس الفرح... وفي النادي تتجمع النسوة الرائعات الجمال... وجوه حلوة ناعمة بشرات بيضاء عيون زرق وخضر (بارعة كانت تخطر على العشب كأنها لوحة الربيع لبوتشيلي)[٢١] ويقارن الكاتب بين دمشق والقاهرة فكل ما في القاهرة من جمال ضخم... كبير... ساحق أما الجمال في دمشق 'فكله أنيق مدنف رهيف حلو ناعم'.

أما بيت نديم في حلب فهو في حي السبيل الراقي.. وقد رحل إليه مع اهله من حي الكلاسة الشعبي، وعندما يختار بيتاً للسكن في دمشق يختاره في حي المهاجرين الذي يشكل مع أبي رمانة والمالكي... الأحياء الراقية في دمشق فيفرشه فرشاً جميلاً، يعبر عن ذوق رفيع يقتنص الجمال من وراء البساطة.

من الأفكار والقضايا السياسية التي طرحتها الرواية:

تطرح الرواية جملة من الأفكار السياسية، تلخص تطلعات ورؤى الشارع العربي في عقد الخمسينات ومن أهمها:

قضية الوحدة العربية، كحلم جماهيري، راود خيالها عبر قرون الظلام التي مرت على الأمة العربية كان إيمانها بها لا يتزعزع، وأنها هي التي ستعيد للعرب السيادة بعد تجربة قرون عديدة كانت الأمة العربية تسبح فيها في لجة الظلام، والوحدة العربية ثورة بطاقاتها المتفجرة، تبني الوطن العربي من جديد وبقوتها تشكل الدولة العربية التي هي (الثورة الحقيقية لهذه الأمة، الثورة التي تشكل هذه الأمة من جديد وتخلق مجتمعها خلقاً جديداً...)[٢٢]

وقد فجرت الوحدة بين سوريا ومصر الطاقة الجماهيرية المختزنة، فجرت الوحدة الينابيع الزخارة وأتاحت للشعبين الاختلاط وحرية الانتقال، ويعتبر الكاتب أن الحديث عن الوحدة ليس سياسة إنه الهواء والماء والغذاء فنحن لا شيء بلا وحدة.

كما تطرح الرواية قضية اللقاءات الآسيوية الإفريقية، والتي كانت نشطة إبان تلك الفترة وتؤكد على إمكانية نمو العقل الأسيوي الإفريقي إذ هيأت له المناخات المناسبة، فهو يمتلك جذوراً حضارية إلا أنه لا يسرع الخطوات في عصر الفضاء للقضاء على تخلفه.

عبرت الرواية عن الأخطاء المرتكبة في عهد الوحدة في:

- اختيار حمدان وهو الطبيب الاختصاصي في الطب النفسي لمنصب تنفيذي في دولة الوحدة ثم انسحابه من الوزارة لتراكم الأخطاء في الظلم (لقد عدت لخدمة مرضاي ربما يمكن لأي إنسان أن يحل مكاني في منصبي، ولكن لا يمكن لغيري أن يحل محلي في عيادتي)[٢٣].

- اعتقال صفوان كذلك من الأخطاء السياسية القاتلة لحكم الوحدة، وقد أورده الدكتور العجيلي كنموذج لأعمال بوليسية مشابهة، واعتقالات بالجملة.

- إن السياسة تعطي السياسي بريقاً وشهرة ولكنه البريق المهيأ للخمود إذا فشل السياسي بالانتخابات أو استقال من الوزارة، أو تخلى عن الحكم فستبقى منغصات السياسة ملازمة رأس السياسي وأعصابه، ولعل هذا هو الدافع وراء عدم الانسياق والانجرار إلى ساح العمل السياسي..

- خصوصية المراحل الانتقالية في حياة الأمم والضريبة التي تدفع لاستيفاء استحقاقات هذه المراحل، وتديم أحد هؤلاء الضحايا فنديم يمثل أكثر من غيره وضع مجتمعه ووضع أمته، يجسدها في ذاته فيعتبرها أوضاعه الفردية الخاصة، ويحمل وزرها نيابة عن أمته.. إنها تكاليف النشوء والتكوين الجديد

(مراحل الانتقال تكلف عندنا كثيراً لأن عندنا شيئاً كثيراً ومراحل الانتقال عندهم لا تكلف هكذا)[٢٤].

- كما تطرح الرواية جملة من القضايا الاجتماعية والفكرية:

- مسألة الاحتراف السياسي يرد على لسان جدة سميحة سليلة عائلة من تلك العائلات الكبيرة التي بدأت بالانقراض فقد كان والدها من باشوات البلاد وزوجها من الزعماء، وهي ترى أن السياسي كان في القديم يولد سياسياً، وترى في الجيل الحاضر متطفلاً على ميدان السياسة فأي شخص يعمل بها وفجأة يصل إلى الذروة وفجأة يسقط، وعندما يؤكد لها نديم على تبدل الزمان وأنه في وقتنا على كل شخص أن يهتم بالسياسة، ويشتغل بها ترد عليه قائلة (هذا هراء يا بني يجب أن تبقى السياسة بيد من ولدوا لأجلها، لأصحاب البيوت الكبيرة، والعائلات المشهورة)[٢٥].

- كما أن الرواية تطرح صراع الأجيال فتعرض لهذه القضية من خلال حوار بين صفوان على أثر خروجه من المعتقل وبين نديم فصفوان يرى.. إن الكبار يريدونهم نسخة ثانية عنهم، وعندما ينجحون نصبح مثلهم، ونطالب نحن الجيل اللاحق أن يكون لنا نسخة أخرى فتتكرر النسخ (نولد ونموت جيلاً أثر جيل وأمتنا تجلس القرفصاء رخوة هشة.. كل شيء يتغير من حولها.. وتبقى هي جامدة ضعيفة مسكينة وعندما تقف لتسير تراوح في مكانها

عشرات السنين لأن كل جيل نسخة أمينة عن الجيل السابق)[٢٦].

- أما تربية الأبناء.. فيرى صفوان أن تربية أهلهم لهم خاطئة فهم يخافون من كل شيء، لأنهم يعلمونهم الجبن والجزع ويمنعونهم من محبة الوطن (يريدوننا كالحشرات ندب على الأرض نأكل، وننام وننهب إلى المدرسة بدلال نسائي وعناية رخوة لكي نتخرج، ونتوظف ونتزوج ونموت إنهم جميعاً أعداؤنا حتى أمهاتنا أنفسهن)[٢٧].

- عالجت الرواية وضع المرأة من خلال شخصية سميحة السلبية وإن امتلكت حرية استقدام واستضافة نديم في بيت أهلها مستغلة وجودهم في المستشفى إلا أنها لم يكن لها أي تأثير إيجابي في حياة نديم وبالتالي في مسار الرواية، فأكثر من مرة يؤكد نديم أن سميحة لم تستفد من دراستها الجامعية ومن ميدان الفلسفة وعلم النفس، فهي صدى باهت لبيئتها ومجتمعها ويلوم الدكتور حمدان 'نديم' عندما يطلب منها أكثر مما تعطي 'إنك تطالبها بأكثر مما تستطيع، هنالك كبار المثقفين والسياسيين حمقى بلهاء فلماذا لا تلومهم) لماذا نطلب من امرأة عادية أن يكون وعيها بمستوى وعيك؟ مساكين نساؤنا إنهن كالببغاوات صدى لتربيتهن وبيئاتهن)[٢٨] وفي الحقيقة يتجنى الدكتور كثيراً على المرأة فإن لم نطالب الجامعية بالدور الإيجابي في المجتمع؟ فمن نطالب بهذا؟ فدراستها الجامعية التي لا تعدو الترف الفكري ليس لها أي بصمات على تفكيرها.

- عصرنا.. يرى الدكتور أن عصرنا عصر المرض عصر انفصال الذوات عن بعضها عصر اللا مبالاة فيقول (كلنا نزحف إلى أعتاب الجنون.. العاديون من الناس فقط الطبيعيون المتلائمون مع الحقائق التافهة التي تحيط بهم)[٢٩].

- التفكير.. يرى الدكتور العجيلي أن التفكير عندنا وسيلة شقاء وعذاب وآلام.. والتفكير هو طريق إلى التقدم عند غيرنا..[٣٠]

(*) أصدر الدكتور عبد السلام العجيلي رواية (ألوان الحب الثلاثة) بالاشتراك مع أنور قصيباتي عن دار العودة – بيروت – عام ١٩٧٣. ربما تبدو مناقشتنا لهذه الرواية مغامرة لأن اثنين اشتركا في تأليفها

(١) رواية 'ألوان الحب الثلاثة'،د. عبد السلام العجيلي، أنور قصيباتي- ص١٦.

(٢) المصدر نفسه – ص٥٠.

(٣) المصدر نفسه – ص٥١.

(٤) المصدر نفسه – ص١٢٠.

(٥) المصدر نفسه – ص١٣.

(٦) علم النفس، الدكتور فاخر عاقل – ص٢٣٨.

(٧) رواية 'ألوان الحب الثلاثة' – ص١٧٢.

(٨) رواية 'ألوان الحب الثلاثة'– ص١٧٥.

(٩) المصدر نفسه – ص١٩٤.

(١٠) المصدر نفسه – ص١٩١.

(١١) المصدر نفسه – ص٢٠٢.

(١٢) المصدر نفسه – ص٢٠١.

(١٣) المصدر نفسه – ص٢٧٧.

(١٤) المصدر نفسه – ص٢٨٣.

(١٥) المصدر نفسه – ص٣٠٥.

(١٦) المصدر نفسه – ص٣١٠.

(١٧) المصدر نفسه – ص٣١٢.

(١٨) المصدر نفسه – ص٣١٣.

(١٩) المصدر نفسه – ص٧.

(٢٠) علم النفس، أسعد عرابي درقاوي، أملية جامعية.

(٢١) رواية 'ألوان الحب الثلاثة'– ص٩٧.

(٢٢) المصدر نفسه – ص١٥٢.

(٢٣) رواية 'ألوان الحب الثلاثة' .

(٢٤)· المصدر نفسه – ص٢٧١ .

(٢٥) المصدر نفسه – ص٣١٠.

(٢٦) المصدر نفسه – ص٢٥٤ .

(٢٧) المصدر نفسه – ص٢٥٠ .

(٢٨) المصدر نفسه – ص٢٥٢ .

(٢٩) المصدر نفسه – ص٣٠١.

(٣٠) المصدر نفسه – ص٢٠٠ .

أزاهير تشرين المدماة(*)

إطلالة على أحداث الرواية:

ترصد الرواية حرب تشرين التحريرية، وقد اختار الدكتور العجيلي مستشفى عسكرياً بيئة مكانية للرواية، ولعل هذا الاختيار راجع إلى إمكانية استثمار المستشفى كمكان يسمح بوجود أطراف الحدث الكبير من مقاتلين جرحى، وزوارهم من رفاق السلاح وسواهم، وإلى أن المستشفى مجال رحب يتيح للعجيلي استخدام معلوماته الطبية في تغذية عمله الفني.

هيكل الرواية مبني على ثلاث شخصيات رئيسية، الملازم 'سامي' والمساعد 'نعمان' والممرضة 'ياسمين' ضمن خط درامي يشكل شبكة علاقات بين هذه الشخصيات وحرب تشرين وهناك شخصيات ثانوية 'المقدم مروان — الرائد بشارة — العقيد أسعد — سليمان وشخصيات هامشية — سلوى- العقيد نور الدين — الملازم جبر — ناديا' كما يمكن اعتبار الملازم محمود شخصية رئيسية رابعة.

يبدأ الحدث من الشخصية المحورية 'سامي' فحوله تدور شخصية المساعد نعمان وياسمين.. وفيه يبدأ الخط الدرامي للرواية وبه ينتهي.. كلف الملازم سامي والملازم محمود بالتقدم باتجاه بحيرة طبرية لاستطلاع العدو، وقبل البحيرة بخمسة كيلومترات يأتيهما أمر القيادة بالتوقف، يمتثل سامي فيتوقف، ولكن الملازم محمود ينحدر نحو البحيرة، فيستشهد وجنوده، وقد ذهب المساعد نعمان ليلاً إلى مكان إصابة عربة الملازم محمود ليتأكد من استشهاده، كما أصيب الملازم سامي في مهمة أخرى، فكسرت ساقه، وتمزق وجهه وذهب جزء من صيوان أذنه، ونجا المساعد نعمان، فحمل سامي إلى أن أوصله إلى سيارة الإسعاف التي أقلته إلى المستشفى العسكري. يشكل هذا الحدث عصب الخط الدرامي، فعندما يعيد رواية الحدث أمام الممرضة ياسمين يبدو عليها الاهتمام والتأثر لأنه (أي محمود) في الحقيقة كان زوجها سابقاً، وقد طُلِّقت منه لاختلاف رأيهما السياسي في قدرة العسكريين العرب على استعادة فلسطين، وحول مسألة العمل في مستشفى عسكري، هي أرادت ذلك وهو يرفضه، كان يريدني أن أبقى في البيت، ولو أردت العمل، أن أبتعد عن العسكر، قال لي إنه مصاب بتحسس ضد الجيوش.. الجيوش على حد قوله هي التي أضاعت وطننا، لو دافع عن أرضنا الناس العزل، لما ضاعت كما أضاعتها الأسلحة"[1]. كان محمود يمثل الفلسطيني اليائس من

الانتصار على إسرائيل، بل إنه يمثل الفلسطيني الهارب من قضيته، فقد رحل 'إلى بلدان الخليج، لينسى الأرض التي عليه أن يحارب من أجلها'[٢]. عمل في الخليج في الطبوغرافيا مع إحدى شركات البترول، يعود إلى سورية، يستدعى إلى الخدمة الاحتياطية، ثم يتطوع (في الجيش)، ولعل الطلاق السياسي بينهما وشعوره بأنه هارب هو الذي حدا به للتطوع، وحينما قدر له أن يكون أول المتقدمين توغل نحو طبرية، وكان انحداره نحوها سريعاً تحقيقاً لالتحامه بالقضية التي عاد للزواج الحقيقي منها بعد أن أخفق في الزواج الرمزي، المتمثل بـ'ياسمين'[٣].

أما الرافد الآخر للحدث الدرامي، فهو المساعد نعمان، رفيق السلام ومنقذ سامي، فهو إنسان ظريف يصفه سامي بأنه طفل ضخم الجثة'، ساذج العاطفة'[٤]، كان آخر من رأى 'محمود'، كما أنه يميل إلى ياسمين في مشروع حب من خلال الزيارات المكثفة لسامي، كان يتندر بها.. وكانت تراه ثرثاراً ثم لم يلبث نفورها منه أن انقلب شيئاً فشيئاً إلى حب، وقد قرب سامي بين الاثنين فقررا الزواج بعد أن أقنعها بأنه لم يكن بالإمكان جلب جثة محمود.

وقد وضع الدكتور العجيلي إلى جانب سامي في الغرفة ضابطين من صنفين مختلفين من صنوف الأسلحة، تردد إليها ضباط وزائرات، إضافة إلى العقيد أسعد وأركان حربه من الممرضات مما جعل العقيد أسعد يطلق على الغرفة اسم 'الندوة' فقد تم استعراض

البطولات من خلال الجرحى والزائرين فهذا المقدم مروان، ضابط المدرعات يؤكد أن القوة سلاح وشجاعة، وأما الرائد بشارة فقد سبح ساعات كثيرة في البحر على إثر إصابة زورقه، فأصيب بشلل في أطرافه السفلية، وراح يقضي وقته بأن يروي بطولاته البحرية، وهذا النقيب الجوي سليمان يروي بطولات الطيران وكذلك العقيد نور الدين الزائر للمستشفى، كما يروي المساعد نعمان طرفاً من البطولات التي سطرها المقاتلون في ساحات القتال.. ولم تسرد دفعة واحدة بل كان ذكرها منجماً على صفحات الرواية كلها وخلال تطور الخط الدرامي..

إن عنوان 'أزاهير تشرين المدماة' جاء بصيغة جمع.. وقد بدأ هذا الرمز بوجود زهرة برية إلى جانب جثة الملازم محمود، وقد لطخت بدمائه.. لكنها لم تكن زهرة تشرينية واحدة.. وإنما هناك أزاهير تشرينية أخرى قد خالطتها دماء الشهداء[٥]، ولعل ظهور الأزاهير في تشرين.. رمز لولادة النصر.

الخلفيات الاجتماعية:

قصة إيشارب سلوى: 'عندما بدا نفير الحرب، كان سامي يقضي إجازة في بلدته شمال حلب بين أهله وبجوار خطيبته سلوى، فاستدعي للالتحاق بقطعته، فأعطته خطيبته إيشاربها ليغمسه لها في البحيرة، أو في نهر الأردن وكانت عبارتها '.. عبارة تحد أو رهان، أو دعوة.. لبلوغ الهدف'[٦]، وقد يعتبر إعطاء الإيشارب أمر مهمة عليه أن ينفذه 'المثل الفرنسي ما تريد المرأة، يريده الرب'.

يصاب الملازم سامي وينقل إلى المستشفى ويبقى الإيشارب بعهدة الرقيب عوض، إنه لم يستطع أن يغمسه في مياه البحيرة أو النهر 'فلأغمسه في دمي'[٧]، لقد كانت حسرة سامي عميقة لعدم قدرته على غمس وشاح سلوى الملفوف حول رقبته في أصيل ذلك النهار من خريف عام ١٩٧٣، لقد ظل الإيشارب سليماً لم يبلله بمياه البحيرة أو النهر، ولم تلتهمه النيران والشظايا التي مزقت جانباً من وجه سامي، وطارت بقطعة من صيوان أذنه، فالحرقة تملأ قلبه لأن الوشاح بقي جافاً لم يبلل، وإن كان قد تبلل بالدماء 'وأخجل من نفسي لو خطر لها أن تسألني عن إيشاربها، وشاحها الحريري ماذا فعلت به؟ وهل حققت لها ما وعدتها به؟' [٨]

كان يريد أن يتباهى أمام سلوى حين يعود بأنه غمس وشاحها في مياه البحيرة كما وعدها كان يتمنى أن يزف لها بشائر النصر.

ولعل قصة إيشارب سلوى التي تتخذ في الرواية خلفية رمزية توحي أن حرب تشرين لم تحقق الآمال كلها، وأن هناك عودة ثانية تتمثل في الرواية بإمكان العودة إلى بحيرة طبرية وغمس الإيشارب تحقيقاً للوعد الذي قطعه سامي على نفسه أمام سلوى، فلا بد من معارك قادمة تحسم مسألة الصراع مع العدو الصهيوني.

قضايا الحب والزواج:

تطرح الرواية قضية الحب والزواج في الخط الدرامي، كخلفية اجتماعية لأصحاب الندوة، فالملازم سامي، مدرس الأدب العربي في حياته المدنية، ضابط الاستطلاع الذي يؤدي خدمة العلم، مشتاق لرؤية عيني سلوى الواسعتين، وإلى سماع ضحكتها المزغردة، وهو لا يرغب بزيارتها قبل استكمال علاجه، بل إن العقيد الطبيب أسعد يطلب من الملازم عدم دعوة خطيبته سلوى قبل تسوية أذنيه: 'نستبقيه كي نجمل وجهه، ونعدل استواء أذنيه'[٩]، فيطمئن الدكتور أنها لن تأتي، حيث من غير المقبول في بلدته في الشمال أن تصرح سلوى بأنها مشتاقة لرؤية خطيبها، وتريد أن تسافر إلى دمشق لرؤيته، وفي ذلك إشارة للقيم الاجتماعية السائدة في مجتمع ريفي، يخطو على أعتاب المدينة، لكنها بعد إجراء العملية الثالثة التي كانوا يسمونها 'عملية التجميل الكبرى' والتي ساور 'سامي' قبلها بعض الخوف والقلق، أرجعه الدكتور أسعد إلى سلامة التوازن النفسي، وقد حضرت سلوى إلى المستشفى وكان أخوها قد حضر معها إلى دمشق فتعرف عليها نزلاء الندوة.

وزواج ياسمين والملازم محمود، وطلاقهما، وخلافهما السياسي وما ترتب عليه من استشهاد محمود الذي يعتبر عصب الخط الدرامي.. فياسمين لاتني تذكر (الطيرة) أمام زوجها محمود بلدتها التي نزحت عنها إلى طولكرم ثم إلى سورية، فاختلفا حول بعض الآراء السياسية، وموضوع عملها في مستشفى عسكري حيث

كان يرفض عملها، ويرى أن لا قدرة للعسكريين العرب على استعادة فلسطين.. ولعل هذا هو الذي سمم حياتهم، وأدى بهما إلى الطلاق.. فقد كانت ياسمين تتهمه بالتشاؤم والاستسلام وأحياناً بالجبن، وبأنه يريد أن يهرب إلى الخليج لينسى الأرض التي عليه أن يحارب من أجلها.. وفعلاً يذهب إلى الخليج ثم لا يلبث أن يعود، وقد تضخم الإحساس بالهروب، وبالأفكار التي كانت تطرحها ياسمين عليه فيضحي بنفسه وهو يغذ السير سريعاً باتجاه البحيرة، عله يخوض في مياهها، ويبحث بعينيه في شاطئها الآخر عن الدار التي ولد فيها وترعرع وأُجلي عنها.. لكن..

تبدأ علاقة حب بين المساعد نعمان الذي فقد زوجته قبل خمس سنوات عندما انفجرت بها أسطوانة الغاز، وبين ياسمين وقد كانت هذه مجالاً لتتدره بحبها، وصرامتها وعبوسها، وتجهمها، ثم يكتشف أنها تحمل قلباً كبيراً، فيتحول ذلك إلى حب، وكذلك هي تحولت من النفور منه إلى الحب، فيحاول الملازم سامي التقريب بينهما، ويسألها عن رأيها فيه كزوج، وكان المساعد قد أعلن ربط مصيره بمصير الملازم سامي بظرفه وفكاهته المعهودة 'وقت الحرب بمعيته، نحيا معاً.. ونموت معاً.. ونتزوج معاً.. لا بد إذن من الزواج تنفيذاً للاتفاقية، ولننجب أولاداً يقومون مقامنا في الحرب إذاً.

ويطمئن المساعد نعمان إلى النتيجة الإيجابية التي وصل إليها مع ياسمين، فيعطي خلاصة تجربته في الحرب والحياة الاجتماعية

'الحرب علمتنا أشياء كثيرة.. بالعناد والشجاعة والتصميم يمكنك أن تحصل على ما تريد.. على قلاع الأعداء.. وعلى قلوب النساء'[١٠]

الرائد بشارة.. تزوره خطيبته ناديا في المستشفى.. فينتحيان جانباً من الغرفة يتبادلان الحب همساً ووشوشة.. ثم بعد تخرجه من المستشفى يعود لزيارة سامي بعد العملية برفقتها وقد أعلنا خطوبتهما فتهديه أيقونة السيدة العذراء.

المقدم مروان تزوره زوجته مع ولده إلى المستشفى.

ويلخص المساعد نعمان وضع الندوة الاجتماعي:

'أصبحت هذه الغرفة مكتملة الصفات.. فيها كل أشكال الارتباطات العائلية، سيادة المقدم متزوج وله أطفال، سامي خاطب.. الرائد له حبيبة تفضح القمر بحسنها.. محسوبك أرمل بقي المطلقون 'ياسمين'[١١].

مجتمع الرواية:

اختار الدكتور العجيلي المستشفى صورة عن المجتمع السوري، انتقى فيه عينات، السوري، والفلسطيني، ابن القرية، ابن المدينة حيث راعى، التوزع الجغرافي.. الديانات، المجند والمتطوع، المدني والعسكري، كما انتخب عينات من صنوف الأسلحة..

وأدار الصراع الدرامي، وبناء الحدث من الغرفة في هذه المستشفى والتي أطلق عليها الدكتور أسعد اسم 'ندوة' فكثيراً ما كان يتبادل الشعر مع الملازم سامي، أو يراجع مع نزلاء الندوة خرائط الميدان عند الحديث عن معركة من المعارك، هؤلاء النزلاء الذين يحتلون منزلة خاصة عند الدكتور أسعد..

لقد كان جو الألفة والمحبة والفرح الغامر لسماع أخبار البطولات.. يرفرف على جو الغرفة.. من جرحى ومصابين، ومن القائمين على علاجهم.. ومن زوارهم..

الحرب ومنعكساتها:

الحرب محنة بطبيعتها، والمحن تكشف جواهر الناس فتُذهِب الغش، وتكشف الجوهر، والمحن التي خضناها لم تحطمنا 'وها نحن خرجنا من لهيبها في صفاء الفولاذ وقساوته، وأقدر على خوض مثيلاتها المقبلة وعلى الفوز فيها'[١٢].

إن الحرب قد وقتت حياتنا وأصبحت تواريخ مميزة في سنواتها، فنقول الـ٤٨-٦٧-٧٣ وإنه ليس لنا خيار فيها، فإما أن نحارب لنحرر أرضنا، ونلزم العدو وحده، أو أن نفنى وقد لخص الرئيس الراحل حافظ الأسد ذلك في خطابه الشهير في حرب تشرين 'لسنا معتدين، ولم نكن قط معتدين، ولسنا هواة قتل وتدمير، وإنما ندفع عن أنفسنا العدوان، نحن لا نريد الموت لأحد،

وإنما ندفع الموت عن شعبنا، إننا نعشق الحرية، ونريدها لنا ولغيرنا، وندافع اليوم كي ينعم شعبنا بحريته"[١٣].

قبل الحرب كان شعبنا مقتولاً بالوهم الذي ملأ النفوس عن ضعفنا وقوة العدو الأسطورية، لكن بعد نشوبها وبعد انتهائها تحطمت هذه المقولة على صخرة البطولات التي سطرتها دماء المقاتلين من مختلف صنوف الأسلحة في البر والبحر والجو.. "من كان يظن قبل أيام قليلة من السادس من تشرين أن يحدث ما حدث.. وبالشكل الذي حدث به"[١٤].

تؤكد الرواية على أنه لا بد من الحرب لحسم الصراع، يقول الدكتور أسعد مخاطباً نزلائه الجرحى "ستعودون إلى قطعاتكم ينتظركم عمل هناك، العدو يأبى أن تتمتعوا بصحتكم وبصباكم، كما يتمتع بها الشباب في كل أنحاء العالم"[١٥]، فالحرب مفروضة علينا من معتد أثيم يغتصب حقنا ويريد أن يذلنا..

الأزهار التي جنيناها في حرب تشرين.. عمدت بدم الشهداء.. "دم الشهداء هو الذي يحول بينها وبين التفتت والضياع"[١٦].

البعد القومي:

الحرب ذات طابع قومي، لأن العدو يستهدف الوجود القومي للعرب، ولا بد من تظافر جهود العرب جميعاً لأن الجميع مستهدفون "ما من أحد يحارب عن أحد، نحن شعب واحد، من

يحارب منا يحارب من أجل شعبه' هذا ما تؤكده الرواية على لسان الملازم سامي في حواره مع ياسمين.

الإيمان بقدرة الإنسان:

تؤكد الرواية على قدرة الإنسان وطاقاته التي لا تعرف الحدود، فالإنسان هو مفتاح النصر، فالعقيد أسعد يعجب كثيراً بحكاية تغلب العصافير على البواشق إشارة إلى تغلب طائرات الميغ على الفانتوم والميراج، وتحطيم دباباتنا الأقصر مدى كل دبابات العدو المتطورة..

'إن الإنسان المكون من لحم ودم يستطيع أن يكون إذا صمم، أكبر مقاومة من دروع الدبابات، وأن يكون عقله ويداه أكثر فتكاً من مدافعها'[١٧].

(*) وزارة الثقافة – دمشق ١٩٧٧ – وكانت فصول الرواية قد نشرت في صحيفة 'تشرين' بدءاً من العدد ٣٤٦ المؤرخ في ١٩٧٦/١/٢٨.

(١) المصدر نفسه – ص٣٠٥.

(٢) 'رواية أزاهير تشرين المدماة' – ص١١٧.

(٣) المصدر نفسه – ص٣٩٥.

(٤) 'رواية أزاهير تشرين المدماة' – ص١٢٣.

(٥) ورد هذا الرمز في الصفحات: ١٢، ٢٢، ١٤٨، ١٥٠، ١٥١ من الرواية.

(٦) المصدر نفسه – ص٣٧.

(٧) المصدر نفسه – ص٣٣.

(٨) المصدر نفسه – ص٥٦.

(٩) المصدر نفسه – ص٧٤.

(١٠) المصدر نفسه – ص١٤١.

(١١) المصدر نفسه – ص٨٣.

(١٢) المصدر نفسه – ص١٥٢.

(١٣) المصدر نفسه – ص٣٢.

(١٤) المصدر نفسه – ص١١٣.

(١٥) المصدر نفسه – ص١١٥.

(١٦) المصدر نفسه – ص١٥١.

(١٧) المصدر نفسه – ص٣١.

باسمة بين الدموع

رواية 'باسمة بين الدموع' تقبل المناقشات الفكرية والاجتماعية والسياسية إذ حاول الدكتور عبد السلام العجيلي (تطويع الفن الروائي لها) محملاً روايته جملة من الأفكار الاجتماعية والسياسية إضافة إلى تحميل الرواية نكهة المشكلات التي تعتمل في المجتمع الريفي، ومجتمع العاصمة. واستبار السياق الروائي يضعنا أمام 'سليمان' بطل الرواية 'المحامي' من طبقة ملاكي الأراضي، القادم من الشمال، مهزوماً في انتخابات البرلمان، إلى العاصمة، باحثاً عن مكان متقدم في زحمة الراغبين عن مكان متقدم فيها، فلقد كانت السياسة العامل الأساسي لهجرته، وليس العامل الاقتصادي الذي يحتل مكان الصدارة عادةً في هجرة الريفي في المدينة.

وترصد الرواية الواقع السوري في الخمسينات من خلال شخوصها، والعلائق التي تقوم ببينها، فتلقي حزمة ضوء على العلاقات الاجتماعية في دمشق العاصمة، وفي ريف الشمال وعلى

اللعبة البرلمانية، وعلى الصراعات الفكرية، والسياسية في الشارع السياسي الخمسيني في سورية.

حول أحداث الرواية:

يستخدم الدكتور العجيلي، مدخلاً لروايته، إحدى تقنيات الرواية الحديثة، وهي 'الخطف خلفاً' فتبدأ الرواية بالانطلاق من موقف مثير، وهو سقوط سيارة سليمان، وهو يقودها في طريق العودة من بيروت إلى دمشق، بعد التدحرج من قمة ظهر البيدر إلى المنحدرات المطلة على سهل البقاع.

وقد قسم العجيلي رواية 'باسمة بين الدموع' إلى مدخل، وستة فصول، ووضع عنواناً لكل منها، ففي المدخل، الذي اختار له الروائي 'الطريق الزلقة' عنواناً، يسرد موضوع سقوط سيارة سليمان العطا لله' حيث كان هذا يقود سيارته بحذر وترو عائداً من بيروت إلى دمشق في جو ماطر على الطريق الملتوية المتعرجة الصاعدة في الجبل، والتي يلف الضباب الكثيف وديانها فجاوز 'بحمدون' و'صوفر' بعد المديرج من قمة ظهر البيدر، مطلاً على البقاع، فانحدرت سيارته إلى السفح المزروع صخوراً فردد 'يا ربي، يا ربي' ترديداً عفوياً ليس فيه ابتهال إلى ربه ولا ضراعة، حاول إلقاء نفسه، والقفز من السيارة، أثناء نزولها، فأدارت عموده الفقري على محوره فالتوى وانقصف من وسطه، لقد أوقفت

انحدار السيارة صخرة كبيرة على عمق مائة وثلاثين متراً من نقطة السقوط، وقد كانت الصخرة على بعد ثلاث خطوات من جرف علوه عشرة أمتار يتلوه سفح ينحدر ألف متر من سهل البقاع 'شعرت عند الحادث أن سيفاً قصم ظهري'[1].

أسعف إلى فندق شتوراً، فطلبت له سيدة في الفندق فنجاناً من الشاي، وكانت تسأله عن راحته ومجلسه وتحنو عليه، مما أظهره أمامها بمظهر الطفل الذي يحتاج إلى الرعاية وأظهرها بمظهر أم رؤوم، ودّع السيدة الجميلة التي: أحاطته برعايتها طيلة ثلاث ساعات، وامتطى سيارته متمماً رحلته إلى دمشق، إنه لا يدري على وجه التحقيق، هل كانت الطريق بين شتورا ودمشق، أطول مما ألفه أو أقصر فكل طريق تستمد في العادة طولها وقصرها بالنسبة إليه لا من إشارات الكيلو مترات على جانبي الطريق فحسب، بل من الخواطر التي تدور في رأسه والأحاسيس التي تتقلب في صدره، إنه يعرف أن كل صدمة تصيبه تبلد أعصابه إلى أمد ثم لا تلبث بعد ذلك الأمد أن تتفجر فيها، فتترك آثاراً مضاعفة، لقد كان يجهد في الطريق أن يجنب تفكيره حادث اليوم، حذراً من أن يستعجل تذكره ذوبان التبلد عن أعصابه، حول ماذا يدير خاطره ودمشق لا تزال بعيدة عنه فهو شديد الكمون، يمتص، ثم ينفجر'.

فطن سليمان إلى باسمة التي مضت ستة شهور على آخر لقاء بها، باسمة التي عرفها منذ ثلاثة أعوام أو ما يقاربها، وهذه الفترة هي

السياج الزمني للرواية، فطلبها على الهاتف باسم (ناتاشا) يتواعدان أمام دار السفارة، فيذهب إلى طريق أبي رمانة، حي السفارات لينتظرها أمام دار السفارة التي يعرفها. كانت ممددة في السرير إلى جانبه، تتحسس أصابعه، شفتيه اللتين طالما أطبق شفتيه عليه في قبلات طويلة وكثيرة، محمومة أو مستثيرة أو مرتوية وهو يحسد من يلقاها في طريقه صباحاً (هنيئاً لمن يلقاك كل صباح على طريقه يا باسمة)[٢] ثم تسأله لماذا لا يتزوج من أختها هيام فيتهرب أو يتخلص من الإجابة مدعياً، بأنه رجل مقصوم الظهر متوتر الأعصاب، لم يبق بينه، وبين الموت إلا تلك الصخرة...

ولا أدري كيف سوغ لنفسه، وهو الخارج للتو من براثن الموت، دعوة، فتاة، بينها وبينه قطيعة، ويرفض الحديث، في موضوع مستقبلي مصيري، أحرى به، أن يفكر ويديم التفكير فيه فتضعه باسمة في قفص الإتهام، وتغرقه بسيل متدفق من الاتهامات، والتقصير، والضياع (منذ أربعة أعوام، وأنت في قلق مستديم لا وجهة لك ولا هدف، شؤونك يديرها أخوتك وأبناء عمك ومكانتك في بلدتك حلَّ فيها أتباعك وفي الحزب هنا قنعت بكتابة افتتاحيات في الجريدة، تقرأ في الصباح، وتنسى في المساء، وبأن توصف بأنك أحد أدمغة الحزب وصفا لا يسمن ولا يغني من جوع، وفي المحاماة رضيت أن تكون في مكتب الأستاذ عبد الحليم شريكاً، عليك، الغرم، ولغيرك الغنم، فأنت وراء نجاح الأستاذ عبد الحليم ولا أحد يدري بك...)[٣].

فباسمة تلخص ما آل إليه وضع سليمان وتسأله إن كان يعرف الحب، وعن علاقته بزوجة صديقه عبد الحليم التي يتعشقها روحياً وتعلق بها تعلقاً افلاطونياً، ويرتبط بسعاد الراقصة جسدياً، وسليمان في هذه المرحلة من حياته ضائع في السياسة، تابعٌ في المحاماة، وترى باسمة فيه إنساناً غريباً، ويكمن وجه الغرابة في دعوتها بعد الحادث المريع الذي تعرض له فالعائد من تجربته المرعبة، ترتجف أوصاله، ويخشع قلبه، وينذر النذور، يبتعد عن مغريات الحياة، ولو إلى حين، يرد وهو يمزح مع باسمة (باسمة ناتاشا... يا حبيبتي عندي ألف دليل على أنك شيطان رجيم وأراك تجهدين نفسك لتكوني ملاكاً.. لماذا ألتدخلي جنتي إني أعرف في جسدك سبع شامات تدخلين بها الجنة دون حساب... واحدة..)[٤].

ثم يسرد العجيلي كيف تعرف سليمان العطالله على باسمة وهيام في الفصل الأول تحت عنوان (عينان واسعتان وجديلتان).

سليمان خطيب مفوه، يعتلي منصة الخطابة في مؤتمر الحزب، وكخطيب متمرس، متمكن، يخاطب عقول سامعيه، فيسرد عليهم تجارب من التاريخ، وموجبات الاقتصاد، مستخدماً الجدل والمنطق ثم يخاطب عواطف سامعيه فيلهبها حين يربط الفكرة العقلية الموضوعية، وبين مثل الأمة الأعلى التي تضرب أصوله إلى العقل والروح معاً ببيان مشرق وبسيط، ناطق بالمعرفة والإيحاء العميق.

يترك سليمان بعد نهاية خطابه المكان المخصص وراء المنبر بين أعضاء اللجنة العليا للمؤتمر فيجلس بين الجماهير بجانب صديقه الدكتور إلياس بين تصفيق الحضور، إذ ميّز في هذا الجو، ومن بين الوجوه وجهاً ذا ابتسامة حلوة إنه وجه سعاد زوجة صديقة عبد الحليم لاحظ بعد استقراره في الكرسي فتاتين تجلسان أمامها، إحداهما تدير رأسها بجرأة، عيناها واسعتان لم يتثبت سليمان من لونهما أهو عسلي أم أزرق مائل إلى الخضرة، شعرها مرفوع بطريقة غير مألوفة، فقد كان مجدولاً، ضفيرة، محيطة بالرأس ذكرته بفتاة روسية رآها في فيلم اسمها 'ناتاشا'.

تستوقف 'باسمة' وأختها 'هيام' 'سليمان' لتسألاه عن الضمان الاجتماعي للمرضى والمتعطلين وإن كان لهذا سوابق في التشريع الإسلامي وفي النظام السياسي العربي، وأنها تتحدث لتلميذاتها عن أن (الروح الإنسانية هي من مميزات أمتنا منذ أقدم العصور)[٥]، يذكر لها شواهد من التاريخ العربي عن خدمات النظام الاجتماعي ثم لا يلبث أن يوصلها والدكتور إلياس إلى بيتهما في حي المهاجرين إلى البيت القديم بين البيوت البديعة، وفي زيارة لاحقة لهما يتحدثان عن ضفيرة باسمة وشعرها الذي يظهرها بمظهر الفتاة الساذجة فيعلق سليمان (يبدو أنك كشمشون في الأساطير شخصيتك، أو قوتك، في شعرك.. مهما بدلت تسريحته، فإنه يظل أول ما يجذب النظر إليك أو أكثر محاسنك عليك

دلالـة)[٦]. أمـا مـا لفـت نظـر باسـمة في سـليمان، فليـس قامتـه الرياضية، أو مشيته أو سيلان شـعره علـى جبينـه، وإنمـا طريقـة لفظة لحرف الجيم فهي معطشة جافة لقادم للتو من الصحراء كما تفاجئه بإحساسها تجاهه وهو يخطب بأنه (لم تكن جاداً.. أو على الأقل لم تكن مخلصاً.. كنت تعرض علينا قدرتك في البيان، وذكاءك في الاستنباط ومعرفتك كأنك تقول: إني أملك كل هـذا ولكن لست في حاجة إليـه إنـه بعـض مـا عنـدي.. إنـي أعيش بغـيره وأعيش لغـيره)[٧] ثـم توضـح أنـه يعيـش في بـرج عـاجي يمـارس السياسـة ممارسة الشيوخ لها بالفكر فقط كأنه يأنف أن يهدر حيويته فيها، ثم يتنافسان في مفهوم السياسة، فهي ترى أن السياسة هـي خدمة للمجموع من قبل الإنسان وهو في أوج نشاطه واكتمال شبابه، وهـو يرى أن هنـاك أموراً ألـذ، يفنـى الشباب فيها، وإن خدمة المجموع بالفكر، والعقل الـذي ينمو لـم يخلق لهـا الشـباب، فالشـباب خلـق لأشـياء أخـرى، ثـم يتحـدث والدكتـور إليـاس عـن آراء (كينسـي) في السلوك الجنسي، والقوى الجسدية التي تبدأ بالاضمحلال بعد سن الأربعين. تتوطد العلاقات بين سليمان وباسمة وتتكرر اللقاءات، في بداية الفصل الثاني الذي يحمل العنوان (في الحي القديم) يقدم لنا العجيلي وصفا لدمشق الخمسينات، وتغير قلب العاصمة بين النهار والليـل بـين الضحـى، والعشـية، فيظـل ناسـه علـى اندفـاعهم، وانشغالهم في كل الأوقات والأحداث، سلماً أم حرباً، رخاء أو شدة،

والأزمة السياسية التي أتت 'بسليمان العطا الله' من مدينته الصغيرة، على عنقها، لا تترك أثراً في حركة قلب العاصمة، ولا في عادات رواد هذا القلب، وهو الذي شغلته قصة الأزمة السياسية التي تعصف بالوزارة، وتهدد مزعزعة نظام الحكم، فوصف 'الدماشقة ولا أباليتهم وطبعهم الانتهازي'[٨] بكلمات لاذعة أثناء حواره مع صديقه عبد الحليم وزوجته سعاد الرقيقة الفاتنة إذ يتحدثان عن الأزمة الوزارية وإمكانية اشتراك الحزب في الوزارة وعسى أن يكون سليمان أحد ممثلي حزبه فيها.

يسكن سليمان في شقة في 'عين الكرش' تتردد عليه 'سعاد' الراقصة التي تعرف عليها بعد مشورة قانونية، كما تتصل به سعاد زوجة عبد الحليم صديقه بعد خروج زوجها في الأوقات المتأخرة.. يلتقي باللون الثالث هيام، في مكتبه، مصادفة، يتحاوران حول مفهوم الأدب، فينتقد سليمان حرفة الأدب، وحول التاريخ والسياسة، وبعد اتصال هاتفي يلتقي معباسمة، فيقومان بجولة في أحياء دمشق القديمة عبر الأسواق القديمة الضيقة المقبية التي لم يزرها منذ عهد الطلبة وهو لا يعرف من دمشق إلا وجهها الحديث، بجوادّها الواسعة، وعماراتها الضخمة، وسياراتها الفارهة، خرجاً من الأقبية، ودخلا أزمة الحارات الضيقة، كانت باسمة تسير وكأنها تيمم قصداً، وقد ربطت بين قصدها لمكان محدد و(راسكو لينكوف) ذلك الطالب الذي قتل العجوز في رواية 'دستويفسكي' 'الجريمة والعقاب' وكيف كان يتردد

بدافع قهار إلى المكان الذي ارتكب فيه جريمته، فيقع سليمان بحيرة، لهذا الربط، فتفك الرموز، وتخبره بأنها امرأة متزوجة ومطلقة، وقد عقد قرانها في أحد منازل هذا الحي العتيق منذ ثلاثة عشر عاماً عندما كانت ابنة أربعة عشر عاماً، حيث كان لأهلها منزل يحنون إليه، ويعودون له حتى بعد انتقالهم إلى المهاجرين للدار الكبيةر لماض تليد، يخلب الألباب بسحره، ويثير الاعتزاز بما يرمز إليه من معالم مجد قديم لقد كانت باسمة تتردد على هذا الحي، بغدائر شعر طويل، وبوجه مورد (كأني جنية، صبية تتجول في خرائب مدينة مسحورة وكل سكانها ما عداي، هياكل أكل البلى عقولها، وقلوبها، وحشي مواضع هذه القلوب والعقول بالعفن والمال)[٩] وأصبحت باسمة زوجة لهيكل محنط ذي قدر عظيم من ساكني قصور الحي، وتعترف لسليمان بأنها كانت آنذاك طفلة، لم يكن شيء في كيانها، أو في جسدها، أو في تفكيرها، أو روحها قد أتم نموه، لقد كانت كتلة هلامية حين أصابها ذلك الحادث الغريب، الزواج، فعرفها بنفسها، ووعت وجودها بعد الزواج فثارت وقطعت الأربطة التي كبلوها بها، إن باسمة تفخر بثورتها، وبامتلاكها لنفسها وحريتها، يعودان من جولتهما السحرية في جو أسطوري من الماضي والحاضر، ليقوما في اليوم التالي برحلة غرام إلى الجبل في لبنان، فيمارسان الحب بعد طريق قطعاه بالحوار السياسي حول الأزمة التي تعصف بالبلاد وبعد اللقاء العاطفي تخاطبه مستنكرة تصرفه معها (إن كل ذلك لهذا، إذن لقد كان لطفك

أحبولة، وذكاؤك شبكة صيد، حكاياتك وتفلسفك، وآؤراك في السياسة، وفي كل شيء مغريات لتصل بي إلى هذه الغاية"[١٠]، في طريق العودة كان يلح على ذهنه تصرفه مع باسمة، وأين يقع من الشروط التي يفترضها في الرجال الذين يريدهم لمثله الأعلى.. أما باسمة فقد كانت عيناها مخلصتين بدمعتين على صفحتي خديها 'ناتاشا .. باسمة.. ما أروعك تبتسمين..'[١١] من خلال الدموع، لم يكن يدري سليمان مبعث هذه الدموع هل هي دموع غبطة أم ألم أم ندم؟ سليمان عضو في اللجنة التنفيذية في حزب الاشتراكي، الذي فتح عينيه سياسياً على رؤيته في مرحلة التكون، والتطور، وكان مؤسسوه يطلبون منه أن يخطب في المظاهرات، وتهيئة الإضرابات في مرحلة الجامعة، وقد كان يرى في مؤسسي الحزب مجموعة فلاسفة بطيئي التفكير، أعجز ما يكونون بعقولهم الجدلية عن إيجاد الحلول منهم مجموعة طوباوية، لكنه بعد تجربته.. عاد مؤمناً بطوباوية الحزب، لقد كانت تجربة دخول حزبه في الحكومة الائتلافية بكون سعيد بك خصمه اللدود في الانتخابات البرلمانية، صدمة، وهو الذي يتلقى الصدمات باحتمال غريب ويعالجها بدوائين، أولهما التفلسف في طبيعة الصدمات، متحرياً عن أسبابها، وثانيها السخرية من نفسه قبل كل شيء وأن الصدمة لم تصبح صدمة إلا لأنه غير متوقع لها إما عن سوء تقدير لقوة الآخرين أو سوء تقويمه لأخلاقهم وإما عن فرط اغتراره بنفسه، لكن الأزمة السياسية لم تفد في تهوين أمرها الوسائل العادية، فلقد كان بعد تشكيل الوزارة

الائتلافية منشغلاً في كتابة افتتاحيات لجريدة الحزب، بوضع خطط سياسية ليسيروا ضدها، أو بصياغة آراء سامية ليلقوها في القمامة، ولم يزد نضاله السياسي على مقال أو خطاب، في حين يقتطع المناضلون الصادقون من أبناء الشعب من ساعات عملهم ومن أسباب معاشهم ومن حريتهم وطمأنينتهم، فكم من طالب سجن؛ وعامل سرح؟ وسليمان يفخر بأنه أكثر المتكلمين عن حاجات الشعب وهموم الفلاحين ويسأل نفسه، متى كان آخر دخول له لكوخ فلاح؟ وهل أنقص نصفاً بالمائة من إيجار الأرض التي يعمل بها الفلاحون لصالح ابن منهم مسته الحاجة؟

يتنبأ الدكتور إلياس بأن هياماً هي المناسبة لسليمان وليس باسمة ويعتمد على رقاص بيده من صيدلية لسور في باريس ويدور نقاش حول الحب بين الدكتور 'إلياس' وسليمان وباسمة التي تعتبر بأنها قليلة الخبرة بموضوع الحب، فهي تعرف البغض فيجيبها الدكتور (إن المخلوق الذي زرع في قلبك هذه المرارة يا آنستي هو مجرم كبير.. وهو كذلك جاهل كبير، في اعتقادي أن في قلب المرأة، كل امرأة، ينابيع حب كبيرة لا تحتاج لتفجيرها، إلا إلى لمسة رقيقة..)[١٢] ويتحدث كذلك الدكتور في هذا الفصل الثالث من الرواية عن الدورة العاطفية للمرأة (التي تخضع لتركيبها الفيزيولوجي ولوسطها الاجتماعي ولتربيتها وثقافتها)[١٣] فقد كان سليمان يدرك قدرة الياس على ابتداع الآراء ومهارته في التدليل عليها وفي نقضها معاً.

يسافر سليمان وباسمة إلى بيروت وينزلان في غرفتين متجاورتين في فندق مطل على البحر، يقومان بجولة في بيروت يلتقيان في مطعم إيطالي، يتحدثان في أمور عديدة، نتبين من خلالها أن باسمة ترى في سليمان بطلاً وقائداً وأنها واحدة من غمار الناس وتقول (أنتم الرجال لكم قدرة كبيرة على التخلص من الأدران التي تخوضون فيها أما الكدر الذي يلحقنا نحن النساء فإنه يظل عالقاً بنا أبداً، يتغلغل إلى أعماق أعماقنا)[١٤] يخرجان إلى (حرج) خارج بيروت فيدور نقاش حول حب الأطفال.. فتفلسف حب الأطفال فالرجال قادرون على حب الأطفال أما المرأة فالطفل قطعة منها (فهل تحب أنت مثلاً يدك)[١٥] وتتمنى أن يكون لها طفل، تشرب الويسكي مع سليمان في ملهى الفندق على أنغام الموسيقى الفاترة، فهل يستطيعان الاستمرار في تعلقهما بالمعاني السامية؟ وهم في هذه الأجواء العبقة إذن لماذا يأرق سليمان ويستعصي عليه النوم؟ أما باسمة فلعل عزوفها عن الالتحام جسدياً بسليمان هو قيمها أو إيثارها لأختها هيام، لكن كأس الويسكي حطمت الأغلال وأزاحت المثبطات وأعادتها إلى حريتها التي تمارسها كما يحلو لها، تسأله إن كان فكر بالزواج منها، فيعترف لها بأنه قروي ولا بد أن يحسب ألف حساب قبل الزواج أولها أهله، فتمتلئ عيونها بدموع ساخنة، وهي التي اقتحمت عليه باب الحمام قبل قليل.

في الفصل الرابع يتبادلان الرسائل، فتحمل على صفحاتها على المرأة العربية وتظهر حاجتها إلى رجل غير عادي إنها تحلم بالطفل.. بالأمل المشرق، وهي تصف نفسها بالجموح حيث إنها لم تقيدها التقاليد بينما يستسلم سليمان للتقاليد تكبله وهي ليست سوى خيوط عنكبوت، وهي معتدة بنفسها تتصور أنها زوجة أو عشيقة لعظيم يرد سليمان على رسائلها وفحوى ردوده إيراد هموم البلدة الصغيرة وتفاصيل يومية، وغرق مسؤوليها بشؤون صغيرة، يراها أبناء بلدة كبيرة جداً ويقارنها مع هموم العاصمة ويسرد لها قضية رئيس المخفر وإرساله لحسين أبي عمشة في مهمة لدمشق بغرض نقل الرقيب إسماعيل وقيام حسين بهذه المهمة خير قيام وتنفيذه خطة رسمها له سليمان وهي مقلبٌ فكه، فترد على الرسالة وترى أن مضمون رسالة سليمان يتلخص في محاولة إقناعها (استحالة التوفيق بين مثلك العليا، ومتطلبات السياسة الواقعية..)[16] وأنها تعشق التطرف، ونرى أن رسالته تحليل عميق للعيوب في سلوك شعبنا وأخطاء الحكم في دولتنا.

حسين أبو عمشة، يريد القوة في السياسة.. ويرى وضع سعيد بك كعضو في البرلمان أمراً طبيعياً فبلد أكثر، من الجهلة والنصابين والحرامية يجب أن يكون سعيد بك هو نائبه.. ويخاطب سليمان (استعمل قوتك يا أستاذ في تنفيذ أفكارك لا تستح ولا تتردد.. كن قوياً)[17] كما يخلص أبو عمشة من ورطة 'سليمان' التي

أوقعه فيها خصمه سعيد بك عندما أراد تدشين مشتل في بلدته لغرض ردم أرضه على حساب البلدية، وبحجة إقامة مشروع عتيد وعلى 'سليمان' تقديم الحفل الخطابي بهذه المناسبة 'الجليلة' فبالمكر والذكاء الفطري، يخلص أبو عمشة 'سليمان' من الورطة.

الفصل الخامس 'دموع باسية' بين أن يتحول سليمان من وجيه قروي قادم من الضيعة إلى محام دمشقي، ونجم مجتمعات سياسية في العاصمة لا بد من أن تنقضي بضعة أيام يثبت فيها وجوده، في القهوة الصغيرة على ناصية الشارع مشاركاً روادها في التعليق الساخر على الأحداث السياسية. وتبادل آخر الاشاعات ثم زيارة مكتبات المدنية فزيارة الدكتور إلياس وتناول العشاء لدى الأستاذ عبد الحليم وزوجته الحسناء أما باسمة فلقد أصبحت جسداً أنثوياً مغرياً، جماله فتنة ثائرة وجاذبيته شهوة عارمة، إنها تلقي جسدها بين يديه مستسلمة لفحولته استسلاماً كاملاً، فقد نسيت لحظات الخجل والندامة وتتحمل وزر علاقتها بسليمان ولا تحاول أن تجد لها عذراً، بل إنها لتكاد أن تفتخر بها بينما كان يحرص سليمان على ألا يرى الناس في علاقته بباسمة إلا علاقة صداقة بريئة. هيام الطالبة الجامعية تدعو 'سليمان' والدكتور 'إلياس' إلى ندوة في الجامعة فيلبيان الدعوة يبدأ الدكتور الحديث، وحديثه تمهيد لحديث صديقه وأنه راض أن يكون سلماً لمجد صديقه، وهنا يوظف العجيلي خبرته الطبية العريقة في خدمة

عمله الروائي، ثم الحديث عن مرض أحمد بك، وصراعه مع المرض الخبيث وليس لدى الطبيب سوى المسكنات وتطرق للضمير الطبي، لقد روى الدكتور إلياس قصة أوجاع مريضه وهمَّ طبيبه الذي كشف لسليمان قبل الطلاب أن في الحياة شيئاً اسمه ألم وشعور ذو وجود اسمه المسؤولية.

لقد أبدى الطلاب إعجابهم بسليمان، وإنه ليشعر بالضيق والبرم لأنه يتصرف ظلماً بخيرات ليست له بل مسلوبة من أهلها، إعجاب هؤلاء الفتيان والفتيات، الشهرة التي يحاط بها، بسطة العيش الاجتماعي التي يتمتع بها جسد سعاد الراقصة، رغبة سعاد زوجة الأستاذ عبد الحليم، وإعجاب هيام، حب باسمة.. كل هذا.. نعم وضع عليها يده بطريقة أو أخرى من طرق الغصب، أو الغدر، أو التغرير.

يذهب سليمان إلى الشقة، فيجد باسمة، وقد حال صراع معنّد دون حضورها ندوة كلية الآداب، غافية، وكانت أفكاره في دوامة من التساؤل عن حقه في هذا الجسد، وعن مصير علاقته بها، وعن نوع العاطفة التي تربطه بصاحبته، وعن النهاية التي تنتهي إليها شهوات كل خل إلى خليله..[١٨] تفيق وقد أصبحت الساعة الحادية عشرة، فهمت بخلع ثيابها، مبتدئة بطوق يحدد عنقها، لكن سليمان لا يشجعها متذرعاً بتأخر الوقت فتسأله (سليمان هل شبعت مني)[١٩] فتزداد نظرة باسمة حدة ثم لا تلبث أن تتكسر تترك مكانها لدمعة قهر في موقي عينيها الجميلتين،

فتخرج ناسية طوقها، يبدأ بعدها سليمان بعقد مقارنة بين باسمة وهيام، في اليوم التالي تأتي هيام إلى شقة سليمان مع زميلتين تطلبان مساعدة لجمعية خيرية، تتصرف معهما، ثم تعود بدعوى نسيان كتاب ثم لا تلبث أن تعترف بأنها جاءت لترى بيته، فترى طوق باسمة في غرفة نوم سليمان، وهي التي طرحت عليه قبل قليل فكرة زواجه من باسمة؛ تخرج وقد عصفت في أعماق نفسها انفعالات عنيفة، ثم لم تلبث أن سقطت طريحة الفراش، إنها تؤثر العزلة ولا تدرس أيهما أشد قسوة وإيلاماً على نفسها.. صدمتها بسلوك أختها، المشين أم خيبتها، خيبة ظنها في هذا الفتى البارز الاسم الذي أعجبت بمثاليته واعتزت بصداقته[٢٠]؟ لقد تنغص عيش سليمان وتكدر صفاؤه وأخذ يراجع حياته في الأعوام الأخيرة فيجد أنها هامشية جديرة بأن تشجب، فقوام حياته عنصران، هما الشهوة لذاته، واللا مبالاة للآخرين وللمجتمع دون أن يؤنبه ضميره، محاولاً إسكاته إن حاول وخزه بأنه يعمل للآخرين ما في وسعه، وأكثر مما يعمله غيره، وقد صدقت باسمة حين قالت له (إنه غير جاد فيما يعتنقه من مبادئ، وإنه فيما يفيض به من أفكار يتخذ هيئة الممتن المتعالي المتفضل..)[٢١] فقد هان عليه أن تدوس المرأة التي يظفر بها كل اعتبار، وتستخف بكل ما يربطها بالمجتمع، إنه يكتشف أنه محروم من روح المرأة التي يتمناها وليس محروماً من الجسد الأنثوي الذي يشتهيه، إنه يحن إلى باسمة ويشتهيها،

ولكنـه غير واثق من أنـه يحبهـا، وهيـام قـد أخـذت تمتلـك عليـه، أفكاره، وتستأثر بمشاعره، لا تلبث باسمة أن ترسل له رسالة (هـذا سيفك وقـد جلوتـه لـك فـاقتلني بـه فـالموت أجمل هدايـا الحـب)[٢٢] وهـي تتصـور سـخرية الآخريـن منهـا، وأن عالمهـا ملـيء بـأصوات سـاخرة كلهـا تقـول: (إليكـم نهايـة الكبريـاء والجمـوح نهايـة المثـل والرسالة، نهاية الأسـرة الكبيرة والثقافـة السـامية..)[٢٣] وتـرى أنهـا تسـتحق لأنهـا رفضـت كـل راغـب وخـاطب، صـراع داخلـي عنيـف يضطـرم في نفسـها، فتصطخـب في قلبهـا عاطفتـان همـا حـب، واحتقـار وتتسـاءل: (أي دمـوع لـم تذرفهـا عينـاي منـك يـا سـليمان؟ دموع الحيرة والدهشـة، دموع الأسـى والكبرياء المجروح، دموع اللـذة، دموع الغضب والقهر، دموع الذل والعار..)[٢٤].

في الفصـل السـادس (بقيـة الدمـوع) يعـود العجيلـي إلـى البدايـة عندما عاد سليمان من بيروت ووقع له الحادث المريع، فلقد علم تفاهـة حياته، وإصراره على أن يعيشها بالرغم من ذلك، ونفسه لم تسـتطع أن تطـابق بين مثلهـا وتصرفاتهـا، إن قلبـه ليكاد ينفطر لإدخالـه الغم علـى قلـب هيام بسـبب اكتشـافها علاقتـه الشـائنة بأختهـا، إنـه مجـرد صبـي مدلـل لا يريـد شـيئاً إلا وصـل إليـه فـإذا اشـتهى امـرأة نالهـا، أو تَرَفَّـع وتركها، وجراحه وآلامه الكاوية؛ هي جراح أنانيته، وآلام كبريائه. يغـادر إلـى بيروت يسـهر في حانـة في كهـف تحـت الأرض، فيفضـي بهمومـه لراقصة نمساوية، فهو نادم على أنـه أيقـظ شـيطان الجنس في جسـد

باسمة، فحوَّلها من فتاة تتصباها متع الفكر والروح إلى أنثى تجد في فحولة عاشقها أعلى مزاياه.

يقع لسليمان حادث السقوط لدى دعوته إلى دمشق، يراجع الدكتور إلياس بشأن آلام ظهره، فيفسر هذا ويعلل مواصلة سليمان السفر بعد الحادث، عازياً ذلك لوجود المرأة التي احتفت به في فندق شتورا ثم يستعرض الدكتور العجيلي معلوماته الطبية عن العمود الفقري، يقرر الرأي الطبي بوجوب عملية لسليمان وضرورة لبس مشد من الجبصين 'مشد كورسيه' أصبحت مشيته غريبة بعد العملية مما أدى إلى نفور سعاد زوجة عبد الحليم منه، وقد أدرك في المستشفى أن ما كان يراه امتيازاً من تحرر من مسؤولية الزوج الأول هو ما ينقصه، فرجل لا يتعلق بولد، هو أبتر مقطوع الصلة بالإنسانية كما أخذ يسأل نفسه (لماذا لم يتزوج حتى الآن، ويتساؤل قلقاً، هل يتاح له أن يتزوج بعد الآن؟)[٢٥].

تزوره باسمة، فتقف صامتة بابتسامتها الخفيفة، ونظرتها العميقة، التي تنطق بالألم والقلق، تتدحرج دمعة ساخنة على وجنتها، يصف لها فظاعة الآلام التي قاساها، تصرح له بأن 'هيام' تحبه، وأن الحب هو الذي يجمع بينهما ويصرح لها بأنه أصبح يؤمن بالحب حقاً، بعد أن كان يعتقد أن الحب أخذ واستلاب، تطلب باسمة من سليمان أن يتزوج من 'هيام' وتعده بحل معضلة الطوق، يغادر المستشفى إلى شقته، لقد أدرك عندما رمقته سعاد زوجة عبد الحليم بنظرة

الاستغراب، مدى تفاهة ما وثّق من علائق في هذه الأعوام الطويلة التي أمضاها من حياته في دمشق، وليس هذا غريباً فقد كان ما يعجب سعاد 'زوجة صديقة' كماله الجسدي، وأمائر فحولته.

دست له باسمة رسالة من تحت الباب تعلمه بسفرها إلى بلد عربي على بحر العرب، يذهب إلى المطار ليلحق بباسمة قبل سفرها، لكنه يخفق فيجد 'هيام' التي تقدمت إليه مفتوحة الذراعين وابتسامة تضيئ وجهها وعيناها من بقية دموع وداع أختها، مخضلتان، مرت الطائرة في تلك اللحظة أمام موقف المودعين في مطار المزة، كان رأس فتاة ملصقاً بزجاج النافذة، رأس تلفه ضفيرة كأكليل، وفي عينيها الواسعتين الطويلتي الأهداب.. دمعتان عالقتان، هما بقية دموع باسمة..

المضمون الاجتماعي:

إن قارئ رواية (باسمة بين الدموع) يجد العنصر الاجتماعي مبثوثاً في ثنايا العمل بحيث يستطيع تتبعه، وربط خيوطه، فهي تصور الواقع الاجتماعي في العاصمة من خلال شخصية 'باسمة' و'سليمان' وتلمح إلى المجتمع الريفي عبر شخصية 'سليمان' كما اتكأت على الشخصيات الثانوية في تصوير اتجاهات أناس منفردين وتصوير اتجاهات اجتماعية، ونستطيع أن ندرج الرواية ضمن الروايات التي صورت مجتمع المدنية، وليس البعد الريفي سوى خلفية للرواية.

ريفي قادم من الشمال:

"سليمان العطا لله" كانت السياسة وراء هجرته إلى العاصمة التي لم ينقطع عن زيارتها منذ تخرجه من كلية الحقوق فجعل إقامته دائمة في دمشق، بل كانت السياسة وراء انخراطه في العمل الحزبي، في الحزب الذي كان من معتنقي فكرته منذ أيام الجامعة/ لقد شكل فشله في الانتخابات البرلمانية أمام خصمه اللدود (سعيد بك) منعطفاً حاسماً في حياته، فأدار ظهره لبلدته الشمالية، واتجه للاستقرار في خضم العاصمة، وسكن شقة في (عين الكرش) وعمل في المحاماة في مكتب رفيق الصبا عبد الحليم الذي اشترط عليه ألا يدخل محكمة ولا يقابل موكلاً ولا يقبض أتعابه نقداً، بل يودع عبد الحليم حصة سليمان في البنك حيث تضاعف حسابه غير الهين الذي كان بعضه ريع أسهم، وبعضه غلة أرض وبعضه أجر عقارات"[٢٦].

أما نشاطه السياسي، على اشتهاره فإنه كان يدور في الدائرة الفكرية، حيث السياسة بمفهومها الأرسطاليسي.. فقد ترك إدارة الأفراد لغيره، واستقل بإدارة الأفكار يبلور رأي الحزب في مقالات، ويصوغ أرادته في خطب وأحاديث، وميدانه في هذه وتلك جريدة الحزب ومنابره[٢٧]..

كان له معارف كثيرون، لكن أصدقاء قلة منهم عبد الحليم وزوجته المعجبة بسليمان، وهي التي لا تتوانى عن الاتصال الهاتفي

به في أوقات متأخرة ليلاً، ومعهم الدكتور الياس،والراقصة سعاد التي تأوي إليه، ومنهم باسمة التي خاض معها تجربة شكلت الحاجز الزمني للرواية بداية ونهاية، وكان لها منعكسات خطيرة على شخصيتيهما، ومنهم هيام، أخت باسمة، وباسمة هذه ترى في ابن القرية في المدينة بضاعة ممتازة (إذا عرف ابن القرية هذا كيف ينبذ ظاهره، ويحتفظ بطابعه الأصيل)[٢٨].

وسليمان يبقى مشدوداً إلى تقاليد القرية، مكبلاً بأغلالها، فعندما تسأله باسمة إن كان قد فكر بالزواج منها يعترف لها أنه رغم كل ما تراه من ظواهر، رجل قروي، وأن للقرويين اعتباراتهم الخاصة،ولا بد أن يحسب حساب أهله، فالزعيم، والمثقف والمحامي، لا يستطيع أن يحسم موضوع زواجه، لاعتبارات خاصة أهمها الأهل والنظرة الخاصة للقرويين فتنتقد باسمة موقفه وتعتبر التقاليد التي تكبله خيوط عنكبوت واهية "تستطيع أن تطيرها بنفحة متى أرادت.. ولكن متى تريد باسمة"؟[٢٩]

بل إن سليمان بعد شعوره المرير بالفشل، وتفاهة حياته أو سطحيتها يصرح لباسمة التي تعوده في المستشفى أنه يفكر بالعودة إلى القرية، يعيش في البيئة التي يجب أن يعيش فيها (ولو رأيتني هناك لما رأيت فيَّ غير فلاح تناثرت عنه الهالة التي تحيط به في مجتمعات المدينة الراقية هنا، فتكشف عما تحتها.. عن سجايا الفلاح الأصيل)[٣٠] وهو في الحقيقة، لم ينقطع عن بلدته انقطاعاً

تاماً بل يرجع إليها بين الفنية والفنية، ويغرق في همومها الصغيرة وتفاصيلها اليومية.

آراء في السياسة:

نستطيع أن نعطي فكرة عن أفكار سليمان السياسية، من خلال حواراته ومناقشاته الممتدة على صفحات الرواية، ومن خلال سبر شخصيته التي رسمها العجيلي من الداخل والخارج، فعندما تصارحه باسمة بأنه يمارس السياسة ممارسة الشيوخ لها، بالفكر فقط وكأنه يأنف أن يهدر حيويته فيها، يتساءل، إذا كانت السياسة أهلاً لأن تهدر فيها حيوية الشباب؟ (أما الشباب، فقد خلق لأشياء أخرى علينا أن نتداركها، قبل أن نندم على فواتها بفواته من بين أيدينا)[٣١] ثم يستنجد بالدكتور إلياس ليسعفه بآراء (الفريد كينس) الشهيرة في السلوك الجنسي ومتى يبلغ الإنسان النضج الجنسي، ومتى تبدأ قواه بالاضمحلال والذبول (أليس من الغفلة إذن أن نشغل هذا العمر الجسدي القصير، بأمور محض عقلية في بقية حياة الإنسان متسع لها)[٣٢] إنه يرى أن خدمة المجتمع بالفكر والعقل الذي ينمو مع الأيام ولا يزيده العمر إلا قليلا فالسياسة والكفاح بعد سن الأربعين، ويستشهد بقول مؤلف أمريكي يرى أن الحياة تبدأ بعد الأربعين، وببعثة الرسول محمد (ص) فهذا هو سن الكمال. ولقد اكتشفت باسمة أن سليمان غير جاد وغير مخلص فيما يعتنقه من مبادئ وأنه فيما يفيض به من أفكار يتخذ هيئة

الممتن المتعالي المتفضل، فالسياسة عنده نوع من الترف الفكري، والوجاهة بحكم الموقع الطبقي المتقدم، طبقة الملاك الزراعيين، أنه ما زاد مرة فيما يسميه نضاله السياسي، عن مقال في جريدة، أو خطاب على منبر في حين يقتطع المناضلون من أبناء الشعب من ساعات عملهم، ومن أسباب معاشهم، ومن حريتهم، وطمأنينتهم في الحياة ليجعلوه واقعاً، ما يصوغه هو وأمثاله لهؤلاء المناضلين من أفكار، فكم من طالب ضرب وسجن وكم من عامل أوذي؟ إن سليمان يفخر بأنه أكثر المتكلمين عن حاجات الشعب إدراكاً لنشأته في بلدة صغيرة وصلاته مع الفلاحين لكنه يسأل نفسه، متى آخر عهد له بدخول كوخ من أكواخ فلاحيه، وهل أنقص نصفاً بالمائة من إيجار أراضيه لواحد من أولئك الفلاحين لأن ابنا له احتاج خلال السنة الفائتة، إلى إجراء عملية باهظة التكاليف.

أما مفهوم باسمة للسياسة فهو خدمة المجموع، وقد يكون المجموع بلداً، أو وطناً، أو الإنسانية كلها، وأنه من الخير أن يبدأ الإنسان خدمة المجموع، وهو في أوج نشاطه ، واكتمال شبابه، وقد رأت في سليمان أمل فكرتها التي تحملها، والتي ترسم بها وفيها لنفسها طرقاً وضاءة نحو مثل أعلى، وتقول لسليمان (إنكم معشر الزعماء تظنون الأفكار السامية وقفاً عليكم، والمصيبة أن وجودكم ضرورة، لا بد منها، لتصبح لهذه الأفكار قيمتها..)[٣٣]، لقد حسبت أنها تستطيع أن تصنع بيدها لبنة في بناء المستقبل الذي تريده للناس الذين تعيش بينهم.

(١) رواية 'باسمة بين الدموع'- ص١٢.
(٢) المصدر نفسه - ص١٩.
(٣) المصدر نفسه - ص٢٢.
(٤) المصدر نفسه - ص٢٥.
(٥) المصدر نفسه - ص٣٢.
(٦) المصدر نفسه - ص٤٣.
(٧) المصدر نفسه - ص٤٤.
(٨) المصدر نفسه - ص٥٣.
(٩) المصدر نفسه - ص٧٨.
(١٠) المصدر نفسه - ص٩٤.
(١١) المصدر نفسه - ص٩٦.
(١٢) المصدر نفسه - ص١٢١.
(١٣) المصدر نفسه - ص١٢٢.
(١٤) المصدر نفسه - ص١٣٣.
(١٥) المصدر نفسه - ص١٣٨.
(١٦) المصدر نفسه - ص١٧٠.
(١٧) المصدر نفسه - ص١٨٧.
(١٨) المصدر نفسه - ص٢٢٣.
(١٩) المصدر نفسه - ص٢٢٥.
(٢٠) المصدر نفسه - ص٢٣٥.
(٢١) المصدر نفسه - ص٢٣٨.
(٢٢) المصدر نفسه - ص٢٤٨.
(٢٣) المصدر نفسه - ص٢٤٩.
(٢٤) المصدر نفسه - ص٢٥٢.
(٢٥) المصدر نفسه - ص٣٠٥.
(٢٦) المصدر نفسه - ص٣٦.
(٢٧) المصدر نفسه - ص٣٦-٣٧.
(٢٨) المصدر نفسه - ص١٤٥
(٢٩) المصدر نفسه - ص١٥٧.
(٣٠) المصدر نفسه - ص٣١٥.
(٣١) المصدر نفسه - ص٤٧.
(٣٢) المصدر نفسه - ص٤٨.
(٣٣) المصدر نفسه - ص١٣٢.

آراء في الحب

احتل الحب مساحة كبيرة من السياق الروائي، جدلاً واختلافاً في وجهات النظر حوله، وممارسة فقد أغرق الدكتور العجيلي في وصف المواقف العاطفية اللاهبة بين باسمة وسليمان، كإعصارين عنيفين، يدور كل منهما في مدار الآخر سليمان يرى الحب خدعة، كبيرة ضحكت بها الطبيعة على الإنسان فالمحافظة على النوع لا تتم إلا باقتران الجنسين في عملية، محض حيوانية، فلا بد للطبيعة، أن ترش على هذه العملية الحيوانية توابل نفسية، وبهارات لتجعلها مقبولة للذوق الإنساني الرفيع هذه التوابل والبهارت والمقبلات هي الحب، وبعض الناس توهموا أن هذه المقبلات هي الأساس ففتنوا بها، وضيعوا أيامهم يتغنون بها، ويتعبدون في محرابها محراب الحب، كالذهب في المبادلات الاقتصادية) وقد تغير مفهوم سليمان عن الحب بعد العملية الجراحية التي أجريت، فأصبحت نفسه أكثر شفافية وانتابها تغير واضح (أنني لا أؤمن بالحب، كان ذلك في الأيام الخالية، أما الآن

فإن مصيبتي أني أصبحت أؤمن بالحب أكثر مما ينبغي)[1] فيؤكد أنه أصبح يؤمن بالحب، إنه يحب الأطفال، المرضى، الطبيب، الدكتور إلياس، حسين أبي عمشة، بينما كان يفهم الحب على أنه أخذ واستلاب، وأنه كان يتحسر لأنه لم يملك هيام) وترى باسمة أن هذا في سليمان يشبه عواطف أفلاطونية، لأنها فاقدة الثقة به.

أما رأي باسمة في الحب فإنها تعترف بقلة خبرتها فيه، وأنها تعرف البغض، ويؤكد لها الدكتور إلياس (أنّ من زرع البغض في قلبك يا آنسة هو مجرم كبير لأن في قلب كل امرأة ينابيع حب كبيرة لا يحتاج لتفجيرها إلا لمسة رقيقة)[2] وباسمة تحب الأطفال وتفلسف حب الأطفال في معرض ردها على سؤال سليمان حول حب الأطفال بأن، الرجال قادرون على حب الأطفال أما المرأة، فالطفل قطعة من كيانها (فهل تحب أنت مثلاً يدك)[3] وترى أنه ربما لم يكن الشيء الذي حملته لسليمان حبا ربما كان اشتهاء ورغبة جسدية مثل الذي حمله سليمان لها من اشتهاء لأنوثتها ورغبة في تملك جسدها وتخاطب سليمان (أما الحب، فيجب أن يكون هذا الشيء الذي بينك وبين هيام، عاطفة متبادلة، تحبك تحبها، هذا هو الحب الصحيح)[4].

لقد عاشا على مدى زمن الرواية تجربة عاطفية عنيفة، انطلق كل واحد منهما من نظرته الخاصة إلى الحب، أحبته لأنها مطبوعة على أن تحب هكذا، ممتحنة، ذاتها، وكيانها، وجسدها، أما هو فأحبها

حب رجل عادي لامرأة من غمار الناس، أعجب بها، وبُهر بجمالها، فأراد أن يضمها إلى متحف آثاره يتمتع بها، غير آبه بالآثار، والجراح، التي يمكن أن يخلفها في روحها، وشخصيتها، وحياتها، إلا أنه سيقذف بها، بعد أن يعتصرها، ولم يبق فيها ما يشتهي.

تلتقي باسمة بسليمان بعد فراغه من مهرجان خطابي في حشد حزبي، تستوقفه بصحبة أختها هيام، والدكتور إلياس، وتناقشه، بنقاط وردت في خطابه، فتكون فاتحة مرحلة من اللقاءات بينهما في منزلها، في حي المهاجرين، تقوده في جولة في الحي القديم حيث ولدت وشبّت في أحد بيوته ولتعترف له بأنها تزوجت وهي ابنة أربعة عشر ربيعاً، ولقد نفضت إليه مكنونات صدرها تحت قناطر الحي الذي زفت فيه إلى زوجها المحشو الرأس بالعفن والمال[٥] وحدثته عن معاناتها عندما ألمّ بها هذا الحادث الغريب (الزواج) لذا هي تشتاق للعودة إلى مكان مسرح ذلك الحدث العظيم بحياتها كشوق راسكو لنيكوف (في رواية الجريمة والعقاب).. وعندما يذهبان في نزهة إلى بحمدون ويكون ثالثهما حديث السياسة تمطر سليمان بأسئلتها واستفهاماتها، وتعليقاتها عن الأزمة السياسية التي تهز البلاد، ويجيبها بأن وراء اشتراك حزبه بالحكم، منفعة شخصية، وفي كوخ في 'بحمدون' يحول سليمان النزهة إلى رحلة غرام عندما يقبل باسمة فتقول له (أذن كل ذلك لهذا؟) إذن لقد كان لطفك أحبولة، وذكاؤك شبكة صيد، وحكاياتك

وتفلسفك وآراؤك في السياسة وفي كل شيء مغريات لتصل بي إلى هذه الغاية؟)[6] ولقاء بعد لقاء بدأت تتحول باسمة إلى مجرد جسد في نظر سليمان، بالرغم من كل مؤهلاتها، وصفاتها الفاضلة، ومواهبها، وشهاداتها في الوقت الذي كان ينسج أجواءه الرفيعة حول سعاد زوجة صديقه عبد الحليم ويلقي بأحاديثه الخلابة المطعمة بملح الفن والعلم والراية عند قدميها. فسليمان يتحمل وزر تغير باسمة إلى هذا التحول الكبير، فهجرت أجواء الروح والفكر وتعلقت بمتع الجسد حيث خمدت في نفسها جذوة الحب للمعاني، فانطفأ من عينيها بريق الشوق للمعرفة، إلى أن ترسل له رسالة تقول له في مفتتحها هذا سيفك وقد جلوته لك، فاقتلني به، فالموت أجمل هدايا الحب)[7].

إنه الموت حقاً، حين تتحول من فتاة مؤمنة بقيم الفكر والروح إلى امرأة شهوانية تعبد جسد الرجل وتفنى فيه.

ثورة باسمة:

شخصية باسمة نامية متطورة في السياق الروائي، ظهرت في حالين فصل بينهما معرفتها بسليمان فقبل أن تعرفه ثارت على قدرها وامتلكت حريتها لكن إلى أين قادتها ثورتها وحريتها؟ بل لعل حريتها هي التي ساقتها إلى طريق سليمان..

نشأت باسمة في أحد أحياء دمشق القديمة، وحين بلغت

العاشرة نزح أهلها إلى حي المهاجرين الراقي، وبقي الحنين إلى الدار العتيقة يسحر اللب بجماله، ويثير الاعتزاز في النفوس بما يرمز إليه من معالم مجد قديم[٨]. فقد كانت باسمة تتردد إلى الحي فتاة رائعة الجمال بغدائر شعر طويل على منكبيها، وبوجه مورد كأنها جنية في خرائب مدينة مسحورة، سكانها هياكل أكل البلى عقولهم وقلوبهم، وكانت الشباك تلقى عليها من كل جانب، حتى وقعت في ذات يوم في شبكة من هذه الشباك، وأصبحت زوجة لهيكل محنط، ذي قدر عظيم، من الهياكل الساكنة قصور الحي القديم، صبية في مقتبل العمر (كنت كتلة هلامية، غير مميزة حتى أصابني هذا الحادث الغريب، الزواج فعرفني بنفسي)[٩].

وعت باسمة وجودها بعد الزواج، فثارت عندئذ، وقطعت الرابطة التي كبلوها بها وألقتها في وجه مكبليها، فلقد خاضت تجربة اجتماعية مرة، وهي تفخر بأنها حسمت الصراع بالطريقة التي اختارتها، فأصبحت مالكةً لنفسها، وأتيح لها من الحرية ما لم يتح لواحدة من أترابها وأشباهها، وأهلها واثقون معترفون بها، معترفون لها بحريتها (حريتي التي لم استوهبها من أحد، بل بيدي رفعت عنها حجبها وأزحت عنها ستورها الخانقة)[١٠] وقد كان هذا مبعث اعتداد باسمة بنفسها، وهي تتمتع بالجمال، والأنوثة، وكرم المحتد، الفكر، والمنطق الناضج، وتتباهى بأنه لا تستطيع امرأة أن تتحداها في ذلك، أما بعد أن تعرفت على سليمان فقد تغيرت

أحوالهـا، واتخـذت شـخصيتها منحـى جديـداً إذ حطمـت الأيـام غرورهـا وارتكبـت خطيئـات بنـات جنسـها ووقعـت في تجاربهن، لقـد كانت باسمة تعتبر سليمان رمزاً وتريده بطلاً وتدعوه في رسائلها أن يعـرف نفسـه ويقـدر مؤهلاتـه حـق قدرهـا وتلـح في لقاءاتهـا علـى موضـوع القـوة والبطولـة، وهـي قـد فكـرت بـالرجل البطـل أكـثر مـن تفكيرهـا بالزواج، بطل تمنحـه حبها وجسـدها وعواطفهـا إنهـا تحلـم أحلاماً وردية فتعبر عن آمالها بـالطفل..[11] الأمـل، الـذي يمكـن أن يتحقـق علـى يـدي سـليمان الـذي دخـل محرابهـا، وتربـع علـى عـرش قلبها، لقد أحبت وتحدت الجميع بحبها، فلا التقاليد رغـم قسـوتها على أمثالها قيدتها، ولا المجتمع، وأقاويله أثّرت بهـا، فلقـد جسـدت فنـاء الأنثى في حب الرجل، رجلها الذي تصطفيه، وهـي التي عرفـت من نفسـها الجمـوح والعنـف والثـورة والتمـرد لقد بادرهـا في قبـلات محمومـة في كـوخ بحمـدون وسـقطت في حمـأة اللقـاءات العاصفـة، عندمـا اقتحمـت عليـه الحمـام في فنـدق بـيروت، فسـقطت أقنعتـه الواحد تلو الآخر، مسحته المثالية، الجو الفكـري الـذي تظـاهر بأنـه يعيش فيه، فقد خدعها بمعسول الكلام ليستولي عليهـا ويتمتـع بهـا ثم ليحولها من فتاة مؤمنة بقيم الفكر، والـروح، إلى امـرأة شـهوانية، تعبد جسد الرجل وتفنى فيه، فلما ارتوى منها لم يكلف نفسه حتـى عناء مجاملتها، وأدركت هي ذلك (.. ضغطتني بين أصابعك القوية، ودعكتني حتى جعلتني كالخرقـة الباليـة)[12] وتـرى أن الذنـب ذنبهـا،

لأنها لم تكن من الصلابة بحيث تقاوم ضغطه أو المرونة بحيث تعود إلى ما كانت عليه بعد زوال المؤثر، وبدأ صراع داخلي عنيف يضطرم في نفس باسمة عاطفتان متنافرتان من حب واحتقار تصطخبان في قلبها، احتقار لنفسها، كيف خدعت به وصدقته فهي قد أحبته لأنها مطبوعة على أن تحب هكذا، فتبكي باسمة، وتتكرر المواقف التي تنهمر فيها دموعها، (لماذا أبكي، كبريائي التي تمسك دموعي تحطمت مرة واحدة، منذ رافقتك إلى بيروت تحطمت كل مقاومة في نفسي، وأنا أتصورك الرجل الذي عبدته، وحين دخلت عليك حوض الحمام كنت أعرف أني ودعت كبريائي إلى الأبد.. أي دموع لم تذرفها عيناي منك يا سليمان)[١٣] دموع الحيرة والدهشة، دموع الغبطة، دموع الأسى، والكبرياء الجريحة، دموع الغضب والقهر، دموع الذل والعار.. بدأت باسمة تتصور سخرية الآخرين، بدءاً من أختها هيام، فكلهم عيون ساخرة شامتة، تحدث بها باحتقار، واشمئزاز (عالمي مليء بأصوات ساخرة كلها تقول إليكم نهاية الكبرياء، والجموح، نهاية المثل، والرسالة، نهاية الأسرة الكبيرة، والثقافة السامية، إنها تستحق ذلك، ألم ترفض كل راغب وخاطب، ألم تسخر من كل عاطفة وحب)[١٤] فالأصوات ترن في أذنيها بين الرثاء والاحتقار، وهي التي لا ترضى بالشفقة، ولا تحتمل الاحتقار، إنها جريمة سليمان في هذا الانحدار الكبير الذي آلت إليه باسمة، وهي التي تمثلته بطلاً، وهي تقرأ كتاب الثورات

الكبرى لنهرو، تصورت نفسها إيفا براون، أو زوجة مصطفى كمال.

يعشعش الحزن والإحباط في حنايا نفسها، فتبكي، لأي داع يحرك أشجانها، ولقد صدقت نبوءة الدكتور الياس (الجمع بينك وبين باسمة في أنبوبة واحدة لا يؤدي إلا إلى انفجار تتحطم فيه الأنبوبة وربما المختبر بكامله)[15] فآثرت الانسحاب، تاركة المساحة لهيام وسليمان في مشروع زواج بعد اختراعها مخرجاً لمأزق طوقها الذي شاهدته هيام في غرفة نوم سليمان.

دمشق الخمسينات:

تلقي الرواية الضوء على دمشق الخمسينات، فقلب العاصمة نهاراً في شبه دائرة مركزها ساحة المرجة، ويمس محيطها باب الجامع الأموي، وبناء محطة الحجاز، والجسر الكبير على بردى، ومدخل بوابة الصالحية، وفي المساء ينتقل المركز إلى بوابة الصالحية، يصف سليمان بكلمات لاذعة أنانية الدماشقة، ولا أباليتهم، وطبعهم الانتهازي، فهم غير مكترثين بالأزمة السياسية التي تعصف بالوزارة، وتهدد بزعزعة نظام الحكم، فالأرصفة بين السبع بحرات والجسر الكبير تعج بالناس فتياناً، أو صبايا، شيباً أو شباناً، يتلكؤون أمام واجهات المحال الأنيقة، وعلى مداخل دور السينما وعلى مواقف باعة الصحف، والمقاهي الصيفية مزدحمة...

الفساد السياسي واللعبة البرلمانية:

تتحدث الرواية عن الانتخابات البرلمانية وصراعاتها المحتدمة من خلال سليمان بطل الرواية وهزيمته أما خصمه سعيد بك، الذي فاز بالمقعد النيابي عن بلدة سليمان، والذي كان أعز أصدقاء المستشار الفرنسي، ورئيساً للبلدية،، فعميل الاستخبارات يصبح في أحزاب الوطن المستقل وممثلاً لقطاع منه (والمبادئ الرفيعة، تتطور، فتصبح باسم الواقعية، بنوداً في عقود شركات، فتستخدم للمساومة، وتبادل المنافع)[١٦] يرى في سليمان حجراً فاسداً، لا يمكن أن يكون حجر زاوية في بناء يقوم فوقه صرح، وهو إنسان باع أمته بالأمس وسرق وخان، فما الذي يمنعه من ذلك غداً؟ بل انه يصبح وزيراً، ويرى في سليمان أنه ليس نداً له، وقد قدم إلى بلدته لتدشين مشروع ظاهرة خدمة المصلحة العامة، وحقيقته خدمة مصلحته الخاصة، فقد جاء ليدشن أرض المشتل الجديد، ويلقي بالتراب إلى الأرض الواطئة التي يمتلكها هو، فتزول شكوى طبيب البلدية من مستنقعات هذه الأرض الواطئة، فتكسب البلدة مشتلاً جديداً، ويصلح الأرض بمال البلدية، وعلى سليمان أن يخطب في هذه الحفلة التهريجية فيخلصه من هذه الورطة ذكاء حسين أبي عمشة الفطري، ولا يرى هذا غرابة في هزيمة سليمان الانتخابية، ويعلل ذلك تعليلاً طريفاً، فهو يرى أن أكثرية البلد من الجهلة، ومن النصابين والحرامية، ومن الحق أن ينتخبوا واحداً،

لتمثيلهم من طبقتهم، فيخاطب سليمان (فهل تظن نفسك أجدر من سعيد بك بتمثيلنا؟ تعال لنتحاسب كم قطعة أرض سجلت باسمك من أملاك الدولة؟ كم هي ديون المصرف الزراعي التي بذمتك ولم تدفعها. كم مجموع الأموال التي قبضتها لحل مشاكل الناس؟ (فيجيب سليمان، صفر صفر صفر..)[17].

كما تبرز الرواية ظاهرة تفشي الرشوة، في قضية نقل الرقيب إسماعيل، وترابط حلقات المرتشين من رئيس المخفر إلى قائد الدرك، وخطة سليمان التي نفذها حسين أبو عمشة تبرز الصراع بين الواقع والمثل.

تستنتج باسمة من رواية سليمان لخبر نقل الرقيب، أنه يريد إقناعها باستحالة التوفيق بين المثل العليا، ومتطلباتها السياسة الواقعية، وتعتبر انتصاره بهذه الطريقة، فشلاً ذريعاً لمبادئه.

هموم البلدة الصغيرة:

في الوقت الذي تحدث باسمة سليمان عن مثاليته، وهي تتخيله في كتاب نهرو، كان سليمان غارقاً إلى أذنيه في صغائر بلدته، وتفاصيلها، بحيث لا يسمح له ناسها البسيطو النفوس، والبدائيو التفكير أن يرقى إلى أعلى، أو ينطلق في جو أوسع، فيتضح صغر المقياس الذي تتخذه الحوادث المادية التي تشغل الناس في محيط البلدة الصغيرة الضيق، إنها في العاصمة، تدور حول منصب وزاري، صفقة مالية ضخمة، في هوى

حسناء من علية القوم، في سبل قضايا الوطن الكبيرة، أما في البلدة الصغيرة (فتدور حول منصب المختار، فضيحة ابنه الحارس، هدم الفرن في آخر السوق)[١٨] وسليمان عندما يأتي يندمج بأهل بلدته، وينغمس في جوها، وكذلك سعيد بك، فموضوع نقل الرقيب إسماعيل ذو أهمية كبيرة (فكل مؤتمرات الحزب، وكل افتتاحيات الجرائد، ليس لها معنى ولا قيمة أمام بقاء الرقيب إسماعيل رئيساً في واحد من مخافر الدرك)[١٩].

الدكتور الياس وآراؤه الاجتماعية:

يقحم العجيلي شخصية الدكتور مرة أخرى، ولعله يصطنع ذلك كي يستثمر خبرته الطبية العريقة في السياق الروائي، فالدكتور الياس صديق حميم لبطل الرواية سليمان، يتحاوران باستمرار في أمور السياسة، والاجتماع، وكل شيء، وشخصيته مسبقة الصنع، لم تتطور في الرواية، وحملها آراء اجتماعية فالمرأة لها دورة عاطفية، تخضع لتركيبها الفيزيولوجي، ولوسطها الاجتماعي، ولتربيتها، وثقافتها، وإن النساء يتفقن على تعمية هذه الدورات العاطفية، وراء ستار الكهرباء الأنثوية، وبين الرجال أفراد رزقوا حاسة دقيقة، يخترقون بها هذا الستار، فيفوزون بقلوب النساء على ما فيهم من عيوب الخلق والخلق (إنهم يلقون كلمة تحبب، أو عبارة غزل حين تكون النفس متفتحة، والقلب متقبلاً)[٢٠] والدكتور إلياس ذو مقدرة على ابتداع الآراء، وذو مهارة في التدليل عليها، والبرهنة على صحتها، وعلى خطلها، وهو يحاضر في الندوة الطلابية الجامعية مع صديقة سليمان، فيشد انتباه سامعيه،

بحديثه، فالطبيب لا ينتج ولا يبدع، ولكنه يعمد إلى البناء القائم، وهو الجسم الإنساني، فيدعم ما مال منه، ويرمم ما تهدم أو كاد، يروي الدكتور قضية أوجاع مريضة (أحمد بك) أو عذابه، وهم الطبيب، وضميره الطبي الذي يوقظه إن استسلم لدفء الفراش، فقد كشفت هذه القصة لسليمان قبل سامعيه من الطلاب، إن في الحياة شيئاً حقيقياً اسمه الألم، وشعوراً ذا وجود اسمه المسؤولية، كما يستعرض العجيلي معلوماته الطبية، في علم وظائف الأعضاء، بعد إصابة سليمان، أثر الحادث، فلابد من مشد الجبصين، فشد كورسيه وإلا فاحتمال حدبة تشوه عموده الفقري، داء كومل – فرنوي، وبمخروطه العاجي يتنبأ بأن بين هيام وسليمان توافقاً وأن وجود سليمان وباسمة في أنبوبة اختبار، قد يحطم الأنبوبة، وقد يحطم المختبر.

الطب الشعبي:

يلمح إليه الدكتور العجيلي، على لسان حسين أبي عمشة، بعد حضوره إلى دمشق لحضور العملية الجراحية التي اقترحها الأطباء لسليمان، فمرض سليمان، برأيه (برقة صغيرة تشفي بلزقة دم القرد التي يصنعها بيطار من بياطرة البلد)، وهناك معالجة أخرى، يلجأ إليها (العقلاء) في الحالات المستعصية ألا وهي أن تدوس بقدميها على مكان الألم عذراء في تمام الرابعة عشرة من عمرها، في ليلة يكون فيها القمر بدراً ابن أربع عشرة)[٢١].

مجتمعات الرواية:

أدار الدكتور العجيلي شخصياته في مجتمع العاصمة بشكل رئيسي، وأطلّ على المجتمع الريفي، ورحل بأبطاله إلى بيروت وشتورا، فهو يقيم في شقة في (عين الكرش) أحد الأحياء القريبة من مركز المدينة، وباسمة تقيم في حي المهاجرين الراقي، بعد رحيلها مع أهلها من الحي القديم ذي القصور العريقة، ينتقلان إلى بحمدون في نزهة، مرة، وأخرى إلى بيروت حيث يقيمان في فندق مطل على البحر، يسهران في ملهى ليلي، يتناولان الطعام في المطعم الإيطالي وهي أجواء مترفة يلجمها علية القوم.

بين نتيشه وأبي عمشة:

فحين يستشهد سليمان بقول نتيشه (هل أنت ذاهب للقاء المرأة؟ لا تنسى أن تأخذ سوطك)[٢٢] يبدي حسين إعجابه بهذه الفكرة، ويطلب من سليمان أن يسلم عليه معتقداً أنه واحد من أصدقائه بل إن 'حسين' يدعو إلى القوة في السياسة، وأن هذا هو الذي ينقصنا، فبرأيه يجب أن تعلق المشانق ليعرف الناس، أن الدولة بطاشة (ينقصنا واحد يمسك برقابنا بقبضة حديدية ويسوقنا كما تساق ثيران السكة في خط مستقيم)[٢٣] كما يرى أن من قلة حظ هذه البلاد أن يركب الحصان الأصيل أسوأ الفرسان، ويعلل لسليمان هزيمته الانتخابية، تعليلاً طريفاً، فليس غريباً أن يهزم سليمان، ويفوز سعيد بك، بل

الغرابة، لو حصل عكس ذلك، فأكثرية البلد نصابون وحرامية ومن الحق أن ينتخبوا واحداً من طبقتهم، وأبو عمشة يدعو إلى الثورة، والعنف، واستعمال القوة، إنه ثوري غير مؤطر بفكر سياسي (الطريق يا أستاذ أن تقلع الشجرة من جذورها، استعمل قوتك يا أستاذ في تنفيذ أفكارك، لا تستح... ولا تتردد. كن قوياً)[٢٤].

الضمان الاجتماعي في التاريخ العربي

تسلط الرواية الضوء على شواهد من التاريخ العربي تتعلق بالضمان الاجتماعي، أهمها بيمارستانات الوليد بن عبد الملك، الذي وكل بكل أعمى قائداً، وبكل مقعد خادماً، وسابقة أخرى أقدم من هذه، ففي عهد خالد بن الوليد لأهل دومة الجندل، نص صريح على أن دافع الجزية في حال شبابه وقدرته على العمل، له حق براتب يكفل له العيش إذا أسن وعجز.

أخيراً:

إن هذه القراءة في الروايات الأربع حاولت التركيز على الجانب الاجتماعي إلا أنها اضطرت أحياناً للتواصل مع عدد من الأفكار والقضايا المتنوعة، ولئن بدا التحليل التذوقي هو الغالب إلا أن إعطاء الأفكار خصوصية نقدية كان بالحسبان، فإن وصلت إليه فهذا المطلوب، وإن لم تصل فإنها حاولت ولعلّ المحاولة علامة من علامات الجهد...!

(١) المصدر نفسه – ص٣٢١.

(٢) المصدر نفسه – ص١٢١.

(٣) المصدر نفسه – ص١٣٨.

(٤) المصدر نفسه – ص٣١٠.

(٥) المصدر نفسه – ص١٠٦.

(٦) المصدر نفسه – ص٩٤.

(٧) المصدر نفسه – ص٢٤٨.

(٨) المصدر نفسه – ص٧٨.

(٩) المصدر نفسه – ص٧٩.

(١٠) المصدر نفسه – ص٨٠.

(١١) المصدر نفسه – ص١٥٤.

(١٢) المصدر نفسه – ص٢٧٥.

(١٣) المصدر نفسه – ص٢٥٠.

(١٤) المصدر نفسه – ص٢٤٩.

(١٥) المصدر نفسه – ص١٨.

(١٦) المصدر نفسه – ص٨٥.

(١٧) المصدر نفسه – ص١٧٧-١٧٨.

(١٨) المصدر نفسه – ص١٦٠.

(١٩) المصدر نفسه – ص١٦٢.

(٢٠) المصدر نفسه – ص١٢٢.

(٢١) المصدر نفسه – ص٣٠٢-٣٠٣.

(٢٢) المصدر نفسه – ص١٧٦.

(٢٣) المصدر نفسه – ص١٧٦.

(٢٤) المصدر نفسه – ص١٧٨.

المراجع والمصادر

◆ **العجيلي، عبد السلام:**

- المغمورون - دار الشرق - بيروت - ١٩٧٩.
- ألوان الحب الثلاثة - دار العودة - بيروت ١٩٧٣.
- أزاهير تشرين المدماة - وزارة الثقافة - دمشق ١٩٧٧.
- قلوب على الأسلاك - الأهلية للنشر والتوزيع - بيروت ١٩٧٤.
- باسمة بين الدموع.
- [illegible]

◆ **الفيصل، سمر روحي:**

- ملامح في الرواية السورية - دمشق - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٧٩.
- تجربة الرواية السورية - دمشق - اتحاد الكتاب العرب - دمشق ١٩٨٥.

حول حياة العجيلي وبداياته

❖ ولدت في الرقة، بلدة صغيرة، أو قرية كبيرة على شاطئ الفرات بين حلب ودير الزور سكانها في أيام مولدي كانوا يتألفون من بضع أسر عربية أو مستعربة نزحت إليها من بلاد مختلفة (من الموصل، من الرها أو أورفا في تركيا، من العشارة بالقرب من دير الزور) وهي في الأغلب أسر تعيش الحياة البدوية لأنها من أصل بدوي أو كانت في وسط بدوي. فمن الناحية الاجتماعية تسيطر العصبية القبلية على حياة الناس، فالقوانين السائدة هي القوانين العشائرية التقليدية، الثأر والدية والمقاضاة أمام [illegible] جمع عارفة وهي قاضي العشيرة أو الرجل الثقة عند القبائل) ومن الناحية الاقتصادية كان أهل الرقة، وأسرة العجيلي منهم، يعيشون حياة نصف حضرية لأنهم كانوا في الشتاء يقيمون في البلدة فإذا جاء الربيع خرجوا إلى البادية يرعون فيها أغنامهم ويتنقلون بين مراعي الكلأ حتى أوائل الخريف. وقد عشت هذه الحياة في صباي فأثرت فيّ كثيراً وقبست منها كثيراً في ما كتبت.

وقد اشتهر أبناء العجيلي منذ أوائل نزولهم في الرقة في أيام الحكم التركي بحب المعرفة وفنون القراءة والكتابة فكانت صلاتهم

بالحكم شديدة كما كانوا الأوائل في التحضر بين مواطنيهم. كما أنهم عرفوا برهافة الحس فكان منهم شعراء (باللغة البدوية) وأصحاب حكايات في الهوى. وحين كنت صغيراً كنت لانطوائي على نفسي أبدو متزمتاً واستمر ذلك إلى أيام شبابي. فكان العارفون بحكايات أسرتنا يعجبون من تقصيري في ميدان العاطفة الذي طالما صال فيه أسلافي وجالوا...

متى ولدت؟ لم يكن في الرقة في تلك الأيام سجلات ثابتة للمواليد ويبدو أني ولدت في أواخر تموز في سنة ١٩١٨ أو ١٩١٩. وأنا أصر دوماً على التاريخ الأول برغم أن الأغلب هو صحة التاريخ الثاني، وذلك لضيق مني بالذين يحاولون إنقاص ما يقدرون على إنقاصه من أعمارهم كأن فرق سنة واحدة يهب الشباب لمن فارقه الشباب!

❖ بدأت دراستي الابتدائية مبكراً، في الرقة، وقد نلت الشهادة الابتدائية السرتفيكا في عام ١٩٢٩ وانتسبت في السنة التالية إلى تجهيز حلب. ولكن مرضاً - لا أدري الآن على التحقيق ماذا كان - حال بيني وبين متابعة الدراسة فرجعت إلى الرقة وانقطعت عن الدراسة على الرغم من شفائي مدة أربع سنين وكان هذا الانقطاع ذا تأثير كبير في حياتي.. فقد أتاح لي الإنصراف إلى القراءة والاطلاع على كل ما وقع بين يدي من كتب قرأتها بنهم: كتب دينية، قصص شعبية مما يمكن أن يوجد بين أيدي الناس في بلدة مثل الرقة، كتب من الأدب القديم، وكتب التاريخ العربي. وحين عدت إلى تجهيز حلب عدت بذخيرة كبيرة من هذه القراءات المتنوعة مما جعلني أكثر اطلاعاً من

كل رفاقي، وفي بعض الأحيان من أساتذتي، في التاريخ والأدب وأكثر منهم حفظاً للشعر ومعرفة بالشعراء.

ولعودتي إلى الدراسة قصة. فقد كان والدي يميل إلى إبقائي معه في الرقة لأتولى معه إدارة أعماله وأملاكه منذ الصغر، ولكن ميلي إلى الثقافة والمعرفة كان كبيراً. وفي ذات مرّة كان شباب البلدة يقومون بتمثيل رواية فأعددت قصيدة (ربما كانت أول قصيدة صحيحة النظم لي) وأعطيتها لأحد رفاقي ليلقيها كفاتحة للرواية مشترطاً ألاّ يذكر أني ناظمها. وحين ألقيت القصيدة ونالت الاستحسان ثم عرف أني ناظمها (كنت حينذاك في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة) اشتد الإلحاح على والدي لإرسالي إلى حلب لأتم دراستي.

وهكذا كان. وبدلاً من أن أدخل السنة الأولى في الدراسة الثانوية قدمت فحصاً تجاوزت به صفين، ولهذا ضاع عليّ من السنين الأربع التي فاتتني اثنتان واستدركت اثنتين. ولا بد لي من القول إنّ هذا الانقطاع عن الدراسة قد أفادني من ناحية أخرى. فإن صغر سني حين نلت السرتفيكا لم يكن يؤهلني لتفهم كل نواحي الدراسة فقد كنت موهوباً في اللغة والدراسات العامة ولكني كنت مقصراً في العلوم والرياضيات، ربما عن عدم اكتمال نفسي أو إدراكي، فلما عدت إلى الدراسة اكتشفت أن ماكنت أخشاه منه من تقصير في العلوم الرياضية والفيزياء قد تلاشى بل اكتشفت أن مقدرتي على تلقي هذه العلوم لا تقل عن مقدرتي في تلقي الأدب والتاريخ. وقد أعطاني ذلك ثقة كبيرة في نفسي. وقد كنت من

أوائل الطلاب في الفيزياء والرياضيات ونلت شهادتي في البكالوريا الثانية في فرع الرياضيات. كما كنت أول دورتي في صفي البكالوريا الأولى والثانية بين كل طلاب سورية في كل من عامي تخرجي.

بعد البكالوريا الثانية التي نلتها في حزيران ١٩٣٨ انتسبت إلى جامعة دمشق فدرست فيها الطب طوال سني الحرب، وانتهيت من الدراسة بانتهاء تلك الحرب في عام ١٩٤٥. ولا بدّ من القول إني بعد أن نلت البكالوريا كانت نظرتي إلى الحياة قد تغيرت. وبموجب هذه النظرة أصبح لي رأي في أن الدراسة العلمية ليست كل شيء في الحياة. وخطر لي آنذاك أن أقف بالدراسة عند حد البكالوريا وأن أخوض في الحياة العملية متولياً أعمال والدي (أعمال زراعية، إدارة أملاك). ولكن موقف والدي في هذه المرة كان كذلك معاكساً لموقفي (كما كان في أثناء انقطاعي عن الدراسة الثانوية) فقد أصرّ على أن أتم دراستي الجامعية، وكان يفضل لي أن أدرس الحقوق إلا أني حين وجدت أن عليّ أن أتم تعليمي فضلت الدراسة العلمية. ولم يكن متيسراً من العلوم في سوريا إلا الطب. وهكذا انتسبت إلى كلية الطب في دمشق.

أذكر أن واحداً من معلمينا ونحن صغار طلب أن يكتب كل منا في المهنة التي يريد أن يمتهنها في حياته. وقد كتبت آنذاك أني أريد أن أكون عندما أكبر طبيباً أخدم الإنسانية وأعمل في مواساة المرضى وتخفيف آلامهم. وحين كبرت كنت أطمح إلى الانصراف إلى البحث العلمي في ميدان الفيزياء بصورة خاصة، ثم إلى خوض

الحياة في ميدان الأعمال.

ولكن الحياة أعادتني إلى أمنيتي الأولى. وأنا غير نادم الآن، فإني أجد أن الطب يعطيني أشياء كثيرة، من الناحية النفسية والفكرية بصورة خاصة، لا أجدها في غيره من أعمال الحياة، وإذا خيرت فإنني لن أتخير لحياتي عملاً غير العمل الذي أمارسه ولا سيما بالطريقة التي أمارسه بها.

❖ ذكريات ما قبل الكتابة هي ذكريات البيئة التي عشتها بألوان حياتها البسيطة ولكنها مع ذلك فريدة أو غير مألوفة أو كما يسميها الفرنسيون EXOTIQUE، ثم ذكريات القراءة الموحية بتصورات متنوعة وسلوك في الحياة متأثر بهذه القراءات. فالقراءات الدينية، مع البيت المتدين الذي أعيش فيه، ساقتني إلى التأملات الدينية وإلى ممارسة الصلاة والصيام منذ سني الصبا الأولى. وقراءات قصص المغامرات أوحت إلي بأحلام يقظة كثيرة عن مغامرات أنا بطلها. وأذكر أن والدي فاجأني وأنا في ظل جدار الطاحونة التي كنا نملكها وكنت أتلقى دروس الحياة العملية فيها، فاجأني وأنا منصرف إلى أحلامي فسألني عما أفكر فيه فصارحته بأني أتصور نفسي بطلاً لإحدى القصص التي كنت قرأتها فلم يرق له ذلك وقرّعني قائلا إنه كان يتصور أن أفكر في طريقة أوسع فيها أعماله، وفي الحق إن والدي كان ذا حس عملي كثير النمو، ولكني كنت، ولا أزال ضعيفاً، في هذه الناحية، قليل الميل إلى العمل المادي. (وهذا لا يعني فشلي في الحياة العملية، فبالرغم مما قلته فإني لم أشك الفشل في الحياة العملية.

وربما كان ذلك لأن تصميمي على إنجاز أمرٍ ما يتغلب على ميولي العاطفية التي أحملها لذلك الأمر).

ما بقي في ذاكرتي عن كتاباتي الأولى، أو محاولات الكتابة هي أنها كانت مزيجاً من محاولة التعبير عما في النفس والتقليد لما كنت أقرأ. بدأت المحاولات في الثانية عشرة من عمري بتأليف تمثيلية حول قصة تاريخية جرت في ضواحي الرقة قرأتها في إحدى الروايات الرخيصة، وذلك في وقت لم أكن أعرف فيه عن المسرح غير ما شهدته من تمثيل إحدى الروايات المسرحية المدرسية. وبدأت كتابة قصة بوليسية لطول ما فتنت بالروايات البوليسية. وحيت قرأت (آلام فرتر) بدأت بكتابة مذكرات شخصية أتوخى لها أن تنتهي بما انتهت به قصة فرتر لغوته. ونظمت مقاطع مقفاة ظننت أنها الشعر حتى أنبأني معلمي في المدرسة الابتدائية الأستاذ ثابت الكيالي أن الشعر له وزن ولا بد أن يتقيد به الناظم، فجهدت حتى أدركت معنى الوزن فنظمت الشعر متقيداً به قبل أن أعرف العروض، ولكني كنت أغني الأبيات على ألحان بعض القصائد الدينية التي كنت أحفظها حتى أضبط أوزانها. وبالطبع كانت كل هذه محاولات، وأول ما نشرته كان قصة بدوية بعنوان 'نومان' نشرتها لي مجلة الرسالة المصرية التي كان يصدرها الأستاذ الزيات وذلك عام ١٩٣٦. وقد كان نشر هذه القصة مصدراً لثقة كبيرة في نفسي لم أجهر بها لأحد لأني نشرت القصة بتوقيع ع.ع.. ولكن تلك القصة كانت أول ما أرسلته للصحف في حياتي الأدبية. فكونها نشرت مباشرة ودون تأخير، وكون نشرها كان في

المجلة الأدبية الأولى في العالم العربي، أمران لم يكونا عاديين. وربما كان الأصح أن أقول بأن نشر تلك القصة كان تحقيقاً للثقة التي كنت أجدها في نفسي إذ تذكرت بأني عن قصد وجهت أول قصة أكتبها إلى تلك المجلة الذائعة الصيت.

إلى أن انتهيت من دراستي الثانوية ظلت الكتابة نشاطاً خفياً لي. فقد كان أساتذتي وأصدقائي يعرفون أني شاب موهوب في الأدب مثلما كنت متفوقاً في الرياضيات والعلوم. وما كنت أنشره لم يكن يدري به أحد. فقد نشرت في المكشوف بعض القصائد والقصص والتعليقات ولكن بأسماء مستعارة لم أكن أطلع أحداً على حقيقتها. وحتى قصتي الأولى لم أذكر لأحد أني نشرتها في الرسالة. مع أن ذلك كان جديراً أن يلفت إليَّ أنظار المتأدبين في مدرستي وفي حلب كلها. وقد استمررت في التخفي وراء الأسماء المستعارة حين كنت أكتب في الصحف الدمشقية الأدبية والسياسية، حين بدأت دراسة الطب، حتى اكتشف الأستاذ سعيد الجزائري هذا الطالب الذي كان يدخل المسابقات فيفوز فيها ثم لا يتقدم إلى أخذ الجائزة لئلا يعرف اسمه. وقد كانت تلك بداية صداقتي بالأستاذ الجزائري الذي كشفني للقراء كما كان حاثّاً لي. بطريقته المعروفة. على الإنتاج الأدبي. وهمزة وصل بيني وبين كثير من الأوساط التي كنت أتجنبها بانطوائيتي المعهودة. وبميلي إلى أن أكون في الأدب مجرد هاوٍ لا عاملاً جاداً. وكمثال على ذلك أروي الحكاية التالية:

بعد ظهر أحد الأيام سمعت الأستاذ سعيد يناديني وهو

واقف تحت شباك غرفتي في البنسيون الذي كنت أسكنه في حارة 'دك الباب' بدمشق، وأطللت من الشباك فسمعته يقول إن هناك مسابقة في إذاعة دمشق (أيام الحرب) معهوداً بها إليها من إذاعة لندن، وإن جائزتها عشرة جنيهات، فلماذا لا ادخلها؟ قلت له: متى ميعادها؟ قال آخر موعد لقبول القصائد هو غداً صباحاً. قلت: الوقت ضيق ولديّ بعض الدروس في الجامعة بعد الظهر. قال ما عليك إلا أن تمشي بعض خطوات في شارع بغداد (وكان شارعاً قليل البنيان في تلك الأثناء، مظلماً بالتعتيم الحربي) فتأتي القصيدة وألح عليَّ في أن أشترك في المسابقة، فسألته عن المحكمين فسمّى لي بضعة أسماء أغلب أصحابها من أعضاء المجمع العلمي العربي، فانصرفت إلى نظم قصيدة في الموضوع المطلوب وهو 'الجندي في ميدان القتال' وحرصت على أن أضمن أبياتها تعابير مغرقةً في الفصاحة المعجمية وكلمات ترضي المجمعيين وحقاً لقد فازت القصيدة بالجائزة الأولى، وأذاعتها بعد محطة دمشق محطة إذاعة لندن وحين يروي الأستاذ سعيد الجزائري هذه القصة الآن يزعم بأني لم أكن مسروراً بنشر خبر فوزي بالجائزة الأولى في الصحف وهو النشر الذي تولاه الأستاذ سعيد في حينه، وأني لمته على ذلك لأن ذلك عرَّف أهلي أني فزت بمبلغ لا بأس به من المال فأدى ذلك إلى إنقاص مرتبي الذي كان يرسل إليَّ كطالب، فعدت من فوزي بالجائزة بالخسران المادي...

❖ لم أنتسب إلى وظيفة من وظائف الدولة، ولكني عملت في الحقل العام كسياسي. مثلت الرقة كنائب في مجلس عام ١٩٤٧

الذي قام في أيامه انقلاب حسني الزعيم وتوليت الوزارة في عام ١٩٦٢ بين نيسان وأيلول من ذلك العام، في وزارة الثقافة ووزارة الخارجية ووزارة الإعلام.

ولعل أهم ذكرياتي السياسية تنتسب إلى المشاركة التي أتيحت لي في معركة فلسطين في عام ١٩٤٨. ففي أوائل ذلك العام تطوعت، وأنا نائب، في حملة جيش الإنقاذ وهي الحملة التي كان مقرراً لها أن تدخل فلسطين قبل أن يصبح قرار التقسيم نافذ المفعول في ١٥ أيار ١٩٤٨، لتنقذ فلسطين وتعيدها إلى أهلها وتطرد اليهود من أرضها قبل أن يصبح لليهود كيان شرعي دولي. وكان جيش الإنقاذ بقيادة فوزي القاوقجي إلا أن الطليعة الأولى التي دخلت فلسطين من هذا الجيش كانت بقيادة أديب الشيشكلي وباسم فوج اليرموك الثاني.

أما مؤلفات العجيلي فقد تجاوزت الثلاثين كتاباً، وهي قصص قصيرة وروايات ومقالات وديوان شعر وذكريات..

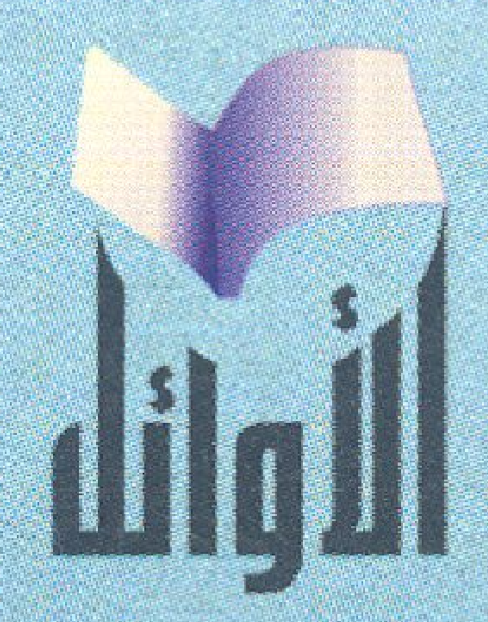
الفهرس

مظاهر اجتماعية في بعض روايات العجيلي

يسعى هذا البحث إلى إلقاء الضوء على بعض روايات الأديب المعروف عبد السلام العجيلي.

وهو إذ يتفرغ للحديث عن بعض المظاهر الاجتماعية، فلأن مؤلفه مقتنع بأن للمجتمع في أدب العجيلي مكانة خاصة.

ومع أن القارئ يلحظ حاجة البحث لإطالة أكثر، إلا أن إنارة شمعة أكثر جدوى من الانتظار.



للنشر و التوزيع و الخدمات الطباعية

سورية . دمشق . ص.ب : 3397-10181